أجاثا كريستي

لغز دُمية الخيّاطة

دار النجمة للنشر والتوزيع

لغز دمية الخيّاطة

وقصص أخرى

بسم الله الرحمن الرحيم

أجاثا كريستي

لغز دمية الخيّاطة
وقصص أخرى

دار النجمة للنشر والتوزيع

جميع حقوق هذه الطبعة محفوظة للناشر:
دار النجمة للنشر والتوزيع

يُمنَع تصوير أو إعادة إنتاج هذا الكتاب
ورقياً أو إلكترونياً إلا بإذن خطي مسبَق من الناشر

للاستفسار والطلبات التجارية
AgathaBooks@sardira.com

عقد الزمرّد

جاءت زوجة الكاهن من ركن الأبرشية حاملة في يديها أزهار الكرسنتيم وقد التصق بحذائها الطويل قدرٌ كبير من الطين، كما كانت توجد قطع من الطين تلوّث أنفها، وهو ما لم تكُن تفطن إليه. ووجدت بعض الصعوبة في فتح بوابة الأبرشية الصدئة التي كادت مُفصّلاتها تنخلع.

وقابلتها هبّة من الريح عبثت بقبّعتها. وكانت زوجة الكاهن السيدة هارمون قد لُقّبت ببانش بدلاً من اسمها الحقيقيّ ديانا منذ طفولتها فالتصق بها هذا الاسم حتى بعد زواجها. وشقّت بانش طريقها وهي تجتاز البوّابة حاملة أزهار الكرسنتيم بعناية وعبرت إلى الفناء، ثم إلى باب الكنيسة. وكان الوقت في شهر نوفمبر والهواء معتدلاً ومشبّعاً بالرطوبة والسحب متناثرة في السماء وتتخلّلها فجوات زرقاء هنا وهناك، أما الكنيسة فقد كانت مظلمة باردة، حيث كانت التدفئة في الداخل قاصرة على أوقات الحضور.

همست بانش لنفسها وهي ترتعد قائلة: يجب أن أنتهي من هذا العمل بسرعة فأنا لا أريد أن أموت من البرد.

وجمعت الأمتعة اللازمة من أُصص الزهور والماء ثم عادت تهمس إلى نفسها قائلة: كم كنت أتمنى لو كانت زهور الزنبق لدينا. لقد ضِقت ذرعاً بأزهار الكرسنتيم هذه!

ونسّقت الزهور في الأصص وحوامل الزهور ثم حملت الأصص بعناية وسارت في الممرّ، وفي تلك اللحظة ظهرت أشعة الشمس وتسرّبت من خلال النافذة الشرقية ذات الزجاج الملوّن والذي معظم ألوانه من الأزرق والأحمر فكان شكله مذهلاً كالجواهر... هذا ما تخيّلته بانش. وفجأة توقّفت وهي تنظر أمامها إلى درَج المحراب الذي كان يرقد عليه شبح أسود.

فوضعت الزهور بعناية على الأرض وانحنت فوق الشبح الأسود الذي تحت قدميها. كان رجلاً ممدّداً على الأرض مكوّماً على نفسه، فانحنت بانش نحوه ببطء وحرّكته بعناية وتحسّست نبضه فوجدت أن النبض ضعيف ينبئ عن نهاية ذلك الشبح، وكان الوجه المخضرّ يكشف عن الخاتمة دون شك، ورأت بانش أن الرجل يلفظ أنفاسه الأخيرة.

وكان الرجل في نحو الخامسة والأربعين من عمره يرتدي سُترة رثّة داكنة اللون. وتركت بانش اليد التي كانت تمسك بها ورفعت اليد الأخرى، وكانت اليد الأخرى مطبقة فوق صدره، وعندما نظرت بانش عن قرب رأت الأصابع ممسكة بما يشبه ربطة العنق أو المنديل، وكان الرجل يشدّ به على صدره بقوة، وحول اليد المطبقة كانت توجد بُقع من سائل بُني جافّ علمت بانش أنه دم متجلّط، فجلست بانش على عقبيها مقطّبة الجبين.

وكانت عينا الرجل مغمَضتين إلى تلك اللحظة، ولكنه فتح عينيه فجأة وأخذ يطيل النظر إلى وجه بانش. ولم تكُن العينان زائغتين أو تحاولان استكشاف ما حولهما بل كانت فيهما حياة وتشعّان ذكاء، ثم تحرّكت شفتا الرجل، فانحنت بانش محاولة

سماع كلماته، ولكنه نطق بكلمة واحدة وهي «المحراب».

وخُيل إليها أنها شاهدت ابتسامة شاحبة في الوقت الذي ردّدت فيه الشفتان تلك الكلمة. ولم يكُن لديها شكّ في أنها سمعت تلك الكلمة بوضوح، ومرّت لحظة قبل أن يقول الرجل مرّة أخرى: «المحراب».

ثم أُغلقت العينان مرّة أخرى، فعادت بانش تتحسّس النبض فعلمت أنه لا يزال موجوداً، ولكنه أصبح أكثر ضعفاً. فنهضت وقد استقرّ عزمها على شيء ثم قالت للرجل: لا تتحرّك، لا تحاول أن تتحرّك، أنا ذاهبة لطلب المساعدة.

ففتح الرجل عينيه مرّة أخرى، ولكن كان واضحاً عليه أنه يركّز انتباهه على الضوء الملوّن الذي ينبعث من النافذة الشرقية، ثم تمتم بشيء لم تستطع بانش أن تميّزه، فظّنت أنه كان ينطق باسم زوجها ففزعت وسألته قائلة: جوليان؟ هل قدِمت إلى هذا المكان لتبحث عن جوليان؟

ولكن الرجل التزم الصمت وظلّ راقداً مغمض العينين وأنفاسه تتردّد بوهن، فغادرت بانش الكنيسة مسرعة، ثم ألقت نظرة إلى ساعتها وهزّت رأسها ببعض الرضا وقالت: لا شك في أن الدكتور غريفيث ما يزال في عيادته، ومكتبه لا يبعد عن الكنيسة أكثر من بضع دقائق سيراً على الأقدام.

ثم أسرعت إليه، ودون أن تقرع الجرس أو تطرق الباب اقتحمت العيادة وقالت للطبيب: يجب أن تحضر الآن، يوجد رجل يموت في الكنيسة.

وبعد الوصول إلى مكان المريض انحنى الطبيب فوق

الرجل وظلّ يفحصه لبضع دقائق، ثم رفع رأسه قائلاً: هل نستطيع أن ننقله من هنا إلى الأبرشية؟ أستطيع أن أوليه عناية أوفر هناك، هذا إذا كانت الرعاية تفيده.

- بكل تأكيد، سأذهب إلى الأبرشية وأجهّز الأشياء اللازمة. هل أستدعي هاربر وجونز ليساعداك على حمله؟

- شكراً، سأتصل هاتفياً من الأبرشية لطلب نقّالة، ولكنني أخشى عندما تصل النقّالة أن يكون الرجل...

وترك الطبيب الجملة دون أن يكملها، فسألت بانش قائلة: أهو نزيف داخلي؟

فهزّ الدكتور غريفيث رأسه مؤمّناً ثم قال: ولكن كيف وصل إلى هذا المكان؟!

- أعتقد أنه كان هنا طوال الليل؛ فهاربر لا يغلق باب الكنيسة عندما يذهب إلى عمله في الصباح، كما أنه لا يدخل عادة.

* * *

ترك الطبيب سمّاعة الهاتف وعاد إلى الغرفة التي نُقل إليها الجريح حيث كان يرقد على أريكة وُضعت عليها الأغطية على وجه السرعة. وكانت بانش تبعد إناء الماء بعد أن فرغ الطبيب من فحصه فقال: حسناً، لقد أرسلت في طلب نقّالة وأخطرت الشرطة.

وقف الطبيب عابس الوجه وهو ينظر إلى الرجل الراقد مغمَض العينين، وكانت يده اليسرى تختلج بطريقة عصبية، ثم

قال: لقد أُطلق عليه الرصاص من مسافة قريبة للغاية، وقد لفّ الرجل منديله فحشا به الجرح محاولاً إيقاف النزيف.

فسألته بانش قائلة: هل كان بمقدوره أن يمشي مسافة طويلة بعد إصابته؟

- نعم، هذا محتمل جداً. لقد حدث في إحدى الحالات أن أُصيب رجل إصابة قاتلة ولكنه تحامل على نفسه وسار في الطريق وكأن شيئاً لم يحدث، وفجأة هوى دفعة واحدة بعد خمس دقائق أو ست، لهذا فليس من الضروريّ أن يكون الرجل قد أُصيب في الكنيسة بل ربما يكون قد أُصيب في مكان بعيد، ومن المحتمل أن يكون قد أطلق الرصاص على نفسه وتخلّص من المسدّس ثم سار إلى هنا. لا أستطيع أن أعلّل سبب توجهه نحو الكنيسة بدلاً من الأبرشية!

فقالت بانش: أنا أعرف السبب، لقد ردّد كلمة «المحراب».

فحملق الطبيب إلى وجهها بدهشة وقال: المحراب؟!

- هذا هو جوليان.

وأدارت بانش رأسها عندما سمعت خطوات زوجها قائلة: جوليان، تعالَ يا جوليان.

فتوجه الكاهن جوليان هارمون إلى الغرفة، وكان يبدو أكبر من عمره الحقيقي، وهتف: يا إلهي!

قالها وهو يتأمّل الآلات الجراحية والجريح الراقد على الأرض، فشرحت له بانش ما حدث بالاختصار الذي اشتُهرت

به في رواية الأحداث قائلة: كان يلفظ أنفاسه في الكنيسة بعدما أُطلق عليه الرصاص. هل تعرفه يا جوليان؟ يخيّل إليّ أنه نطق باسمك.

فاقترب الكاهن من الأريكة وألقى نظرة إلى الجريح، ثم هزّ رأسه نافياً ذلك بقوله: يا لهذا الرجل التعس! لا أعرفه، أنا واثق أنني لم أرَه من قبل.

وفي تلك اللحظة فتح الجريح المحتضَر عينيه مرّة أخرى، وأخذت عيناه تنتقّلان من الطبيب إلى جوليان هارمون ثم إلى بانش حيث استقرّت العينان وهي تحملقان إلى وجهها، فخطا غريفيث خطوة إلى الأمام قائلاً يستحث الجريح على الكلام: هل تستطيع أن تخبرنا بشيء؟

ومع استمرار تحديق العينين إلى وجه بانش قال الرجل بصوت ضعيف: أرجوك، أرجوك...

وبعد ذلك اعترته رجفة خفيفة، ثم مات.

* * *

لعق هايز قلمه وقلب صفحة دفتر مذكّراته قائلاً: أهذه هي كل أقوالك يا سيدة هارمون؟

- هذا كل ما لديّ، وهذه هي الأشياء التي عثرنا عليها في جيوب سُترته.

وكانت الأشياء مبعثرة على المنضدة أمام الضابط هايز، وهي حافظة نقود وساعة عتيقة نُقشت عليها الحروف الأولى من الاسم «و.س» ونصف تذكرة للعودة إلى لندن ولا شيء

سوى ذلك.

وسألت بانش قائلة: هل اكتشفتم شخصية القتيل؟

- اتّصل بنا السيد إيكليس وزوجته هاتفياً، ويبدو أن القتيل هو أخو السيدة، وقد فهمت أن اسمه هو ساندبورن. لم تكُن صحّته على ما يرام؛ فقد كان يعاني من توتر عصبي منذ بعض الوقت، وقد ساءت صحته مؤخّراً، وكان قد خرج من المنزل أمس الأول.

فسألته بانش قائلة: لماذا؟

- حسناً، لقد كان في حال اكتئاب نفسيّ عندما...

فقاطعته بانش قائلة: أنا لا أقصد هذا، بل أعني لماذا جاء إلى هنا؟

ولأن الضابط هايز لم يكُن يعلم السبب فقد أجاب بطريقة مبهمة قائلاً: لقد جاء إلى هنا بعد أن ركب حافلة الخامسة وعشر دقائق.

فقالت بانش بإصرار: نعم، ولكن لماذا؟

- لا أدري يا سيدة هارمون، عندما يفقد العقل اتّزانه...

ولم تُعطِه بانش الفرصة لإكمال حديثه بل قاطعته قائلة: ربما يُقدِم الإنسان على فعلته في أي مكان، ولكن يبدو لي أنه ليس من الضروري أن يستقلّ الإنسان الحافلة كي يذهب إلى بلدة صغيرة كهذه! إنه لم تكُن تربطه معرفة بأحد هنا. هل كان يعرف أحداً؟

- لا نستطيع أن نجزم بهذا.

ثم سعل الضابط بطريقة يعبّر بها عن اعتذاره ووقف وهو يقول: من المحتمَل أن يأتي السيد إيكليس وزوجته لزيارتك يا سيدتي، أرجو أن لا يكون لديك اعتراض.

- بالطبع ليس لديّ اعترض؛ فهذا أمر طبيعي، ولكنني كنت أتمنّى لو أن لدي ما أستطيع أن أخبرهما به.

ثم قالت بانش وهي ترافق الضابط إلى الباب: على الأقل أنا مغتبطة لعدم وجود جريمة.

ولمح الضابط هايز سيارة تتوقّف أمام باب الأبرشية، فألقى عليها نظرة عابرة ثم قال لبانش: يُخيل إليّ أن السيد إيكليس وزوجته وقد صلا بالفعل يا سيدتي ليتحدّثا إليك.

فأعدّت بانش نفسها كي تتحمّل ما خُيل إليها أنه مهمّة ثقيلة، ثم همست لنفسها قائلة: على أية حال أستطيع أن أدعو جوليان كي يعاونني؛ فرجل الدين يستطيع أن يساعد الأشخاص الذين أُصيبوا بمحنة فقدان إنسان عزيز.

لم يكن السيد إيكليس وزوجته على الوجه الذي تخيّلته بانش، وقد شعرت بشعور غريب في داخلها وهي تحيّيهما. كان السيد إيكليس رجلاً ضخم الجسم ميّالاً إلى المرح في حين كانت السيدة إيكليس ذات فم دقيّق وصوت رفيع، وقد قالت: لقد كانت صدمة فظيعة يا سيدة هارمون! لا شك في أنك تتصوّرين...

فقالت بانش: أعلم بالطبع، لا شك في أن وقع الخبر كان

مؤلماً. تفضّلا بالجلوس. هل أستطيع أن أقدّم لكما... حسناً، ربما كان الوقت مبكراً لتقديم الشاي.

فلوّح السيد إيكليس بيده وهو يقول: لا، لا، لا شيء على الإطلاق، هذا لطف زائد منك! كل ما في الأمر أننا أردنا... حسناً ما الذي قاله ويليام البائس؟

فأضافت السيدة إيكليس إلى ذلك قائلة: لقد عاش في الخارج مدّة طويلة، ولا أشك في أنه صادف الكثير من التجارب الفظيعة. لقد كان كثير الهدوء يشعر بالاكتئاب منذ أن عاد إلى الوطن، وكان يؤمن بأن العالَم غير مناسب للحياة وأنه لا يوجد أمل يمكن للإنسان أن يتطلّع إليه. مسكين بيل! كان مهموماً على الدوام.

وظلّت بانش تنظر إليهما بُرهة دون أن تنطق بحرف، فتابعت السيدة إيكليس حديثها قائلة: لقد استولى على مسدّس زوجي دون أن نفطن إلى ذلك، ويبدو أنه ركب الحافلة ليأتي إلى هذا المكان. وأعتقد أن ذلك كان شعوراً طيباً من جانبه لأنه لم يشأ أن يُقدِم على هذه الفعلة في بيتنا.

فعقّب السيد إيكليس على ذلك قائلاً: يا لهذا الفتى المسكين البائس!

وخيّم الصمت مرّة أخرى، ثم قال السيد إيكليس: هل ترك رسالة أو قال أية كلمات أخيرة، أو أي شيء من هذا القبيل؟

ثم نظر إلى بانش باهتمام زائد، وكذلك فعلت السيدة إيكليس التي مالت بجسمها إلى الأمام في انتظار سماع الإجابة، فقالت بانش بهدوء: لا، لقد جاء إلى الكنيسة وهو يعاني من

سكرات الموت واتجه إلى المحراب.

فسألت السيدة إيكليس بحيرة قائلة: المحراب؟! لا أكاد أن أفهم...

فقاطعها زوجها قائلاً: المكان المقدّس يا عزيزتي، هذا ما تعنيه زوجة الكاهن. الانتحار هو نوع من الإثم كما تعلمين وأعتقد أنه كان يريد الاستغفار.

فقالت بانش: لقد حاول أن يقول شيئاً قبل موته؛ فقد بدأ يقول: «أرجوك»، ولكنه لم يزِد على ذلك شيئاً.

فوضعت السيدة إيكليس منديلها فوق عينيها وهي تنشج بالبكاء، ثم قالت بصوت متهدّج: آه يا عزيزي! لقد كان أمراً مؤثراً حقاً، أليس كذلك؟

فقال زوجها محاولاً التخفيف عنها: كفى، كفى يا بام، لا تسترسلي في الحزن فتلك الأمور لا يملك الإنسان أمامها شيئاً. مسكين ويللي! ولكنه في راحة الآن على الأقل. حسناً، شكراً جزيلاً لك يا سيدة هارمون وأرجو أن لا نكون قد أزعجناك، فنحن نعلم أن زوجة الكاهن تكون سيدة ذات مشاغل جمّة، نحن نعلم هذا.

وبعد أن تصافحوا باليد استدار السيد إيكليس فجأة ليقول: آه، يوجد أمر آخَر. أعتقد أنك تحتفظين بسُترته، أليس كذلك؟

فقالت بانش مقطبة: سُترته؟!

فقالت السيدة إيكليس: نريد أن نحتفظ بكل متعلّقاته. أنت

تعرفين أن هذه أمور عاطفية.

فقالت السيدة هارمون: كانت في جيوبه ساعة وحافظة نقود وتذكرة قطار، وقد سلّمتها إلى الضابط هايز.

فقالت السيدة إيكليس: لا بأس في ذلك، سيسلّمها إلينا الضابط على ما أعتقد، لا شك في أن أوراقه الخاصة في داخل المحفظة.

- لم يكُن في المحفظة سوى جنيه ولا شيء غيره.

- ألم تكُن فيها خطابات أو أية أوراق؟!

هزّت بانش رأسها نفياً فقال السيد إيكليس: حسناً، شكراً لك مرّة أخرى يا سيدة هارمون. ربما أخذ الضابط السُّترة أيضاً؟

وفكّرت بانش برهة وهي تحاول أن تتذكّر ثم أجابت قائلة: لا، لا أظنه أخذها. دعوني أتذكّر... عندما أراد الطبيب أن يفحص الجرح نزعنا السُّترة.

ثم تلفّتت بانش حولها قائلة: لا بدّ من أنني أخذتها إلى الطابق العلويّ مع إناء الماء والمنشفة.

- سيدة هارمون، إذا لم يكُن لديك مانع فنحن نريد أن نحتفظ بالسّترة؛ فهي آخِر شيء كان يرتديه. حسناً، زوجتي تنظر إلى مثل هذه الأمور نظرة عاطفية.

فقالت بانش: بالطبع، هل تحبّان أن أنظّفها أولاً؟ أنا أخشى أن أذكر أنها... حسناً، ملوّثة بالبُقع.

- آه! لا، لا يهم.

- إذن أرجو أن تنتظرا قليلاً لكي أبحث عنها.

ثم صعدت بانش الدرَج وغابت مدّة من الوقت قبل أن تعود وتقول: أنا في غاية الأسف! يبدو أن الخادمة قد وضعتها مع الملابس المتّسخة استعداداً لغسلها وقد احتجت إلى بعض الوقت كي أعثر عليها. هذه هي، سألفّها لكما في الورق.

وبالرغم من اعتراضهما أصرّت بانش على لفّها، ثم حيّت الضيفين مرّة أخرى قبل انصرافهما وعادت إلى الصالة. بعد ذلك توجّهت إلى غرفة المكتب حيث كان زوجها جالس يقرأ، فقال لها جوليان: ماذا وراءك يا عزيزتي.

- جوليان، ما هو المعنى الدقيق لكلمة «المحراب»؟

وضع جوليان أوراقه جانباً وهو يقول: حسناً، المحراب في اللغتين الإغريقية والرومانية هو الغرفة التي يلجأ العبد فيها إلى الله، وهي تعني الحماية أيضاً.

فابتسمت بانش وقالت: أنت عظيم يا عزيزي، كان السيد إيكليس وزوجته هنا منذ قليل.

فقطّب الزوج جبينه وقال: السيد إيكليس وزوجته؟! أنا لا أذكر...

- أنت لا تعرفهما؛ فهي أخت المتوفّى وزوجها.

- ولكن كان يجدر بك أن تستدعيني يا عزيزتي.

- لم يكونا في حاجة إلى العزاء. أنا في دهشة الآن!

وصمتت بانش بُرهة ثم أردفت قائلة: هل تستطيع أن تتابع الأمر إذا وضعتُ لك إناء الطعام في الفرن غداً لأنني مُضطرّة إلى الذهاب إلى لندن لشراء بعض الحاجات.

فسألها زوجها بشرود قائلاً: وماذا ستشترين؟

- يوجد تخفيض في الأسعار في محال باروز وبورتمان، ونحن بحاجة إلى بعض مفارش المائدة والمناشف وغيرها لأنها تتلف بسرعة، فضلاً عن أنني أريد أن أقوم بزيارة للعمّة جين.

* * *

كانت السيدة العجوز اللطيفة الآنسة جين ماربل تستمتع بمباهج العاصمة لمدّة أسبوعين، وهي تقيم في المسكن المريح الذي يمتلكه ابن أختها.

وقد تمتمت جين ماربل قائلة: لقد كان العزيز ريموند كريماً معي؛ فقد ذهب مع جوان إلى أمريكا لقضاء أسبوعين وأصرّا على توجيه الدعوة إليّ كي أُقيم في مسكنهما هذه المدّة. والآن اذكري لي سبب قلقك يا عزيزتي بانش.

كانت بانش ابنة العمّ المفضّلة لدى الآنسة ماربل، وكانت الآنسة العجوز تنظر إليها بمودّة، فراحت بانش تقصّ عليها القصّة. كانت روايتها مختصرة وواضحة، فهزّت الآنسة ماربل رأسها عندما فرغت بانش من حديثها قائلة: آه، حسناً.

وقالت بانش: هذا هو السبب الذي من أجله أردت أن آتي إليك. أنت تعلمين أنني لست ذكية.

- ولكنك ذكية بالفعل يا عزيزتي.

- آه! لا، أنا لست ذكية مثل جوليان.

- جوليان؟ بالطبع لأنه رجل مثقّف.

- جوليان يمتلك الثقافة، وأنا أتميّز بالإحساس.

- أنت تتمتّعين بقدر كبير من حُسن الإدراك يا بانش، كما أنك مفرطة الذكاء أيضاً.

- أنت ترين أنني لا أعرف ما يجب عليّ أن أفعله. حسناً، لا أستطيع أن ألجأ إلى جوليان لأنه... لأنه شديد الاستقامة.

وكانت الآنسة ماربل تدرك ما ترمي إليه بانش فقالت: أنا أفهم ما تعنينه يا عزيزتي. نحن، معشر النساء، نختلف. لقد رويت لي ما حدث يا عزيزتي، وأحب أن أعرف وجهة نظرك على وجه التحديد.

- الرجل الذي مات في الكنيسة كان يعرف كل شيء عن المحراب، وأعتقد أنه كان رجلاً متعلّماً، ولو أنه هو الذي أطلق الرصاص على نفسه لما تحامل على نفسه وتوجّه إلى الكنيسة بعد ذلك وقال: «المحراب، المحراب». أعني أنه ربما كان يوجد شخص يتعقّبه، والدخول إلى الكنيسة يعني الأمان؛ فلا المطارِد ولا حتى القانون يستطيع أن يلمسه أو أن يفعل له شيئاً.

ونظرت إلى الآنسة ماربل متسائلة فأومأت العجوز برأسها موافقة، ثم استطردت بانش حديثها قائلة: أولئك القوم، السيد إيكليس وزوجته، كانا من طراز مختلف، كان فيهما جهل وخشونة! ويوجد أمر آخَر، وهو تلك الساعة التي كان يلبسها القتيل، لقد نُقش على ظهرها الحرفان «و.س»، وعندما فتحتها

من الداخل قرأت ما يأتي: «إلى والتر من أبيه»، والتاريخ، وكان السيد إيكليس وزوجته يتحدّثان عنه قائلَين ويليام أو بيل.

وكانت الآنسة ماربل على وشك أن تقول شيئاً، ولكن بانش اندفعت قائلة: أنا أعرف أن الإنسان لا ينادَى باسمه دائماً، ولكن الأخت لا تنادي أخاها بويليام أو بيل إذا كان اسمه والتر!

- أتريدين أن تقولي إنها لم تكُن أخته؟

- أنا واثقة من أنها ليست أخته. لقد كان تصرّفهما عجيباً! لقد جاءا إلى الأبرشية من أجل أن يأخذا مخلّفاته وليس لمعرفة ما إذا كان قد قال شيئاً قبل موته، وعندما أخبرتهما بأنه لم يقُل شيئاً ظهر الارتياح على وجهيهما. إن رأيي الشخصي هو أن إيكليس هو الذي أطلق عليه النار.

فقالت الآنسة ماربل: أتعنين أنها جريمة؟

- نعم، جريمة، وهذا هو سبب مجيئي إليك يا عزيزتي.

ربما كانت ملاحظة بانش غير مناسبة للمستمع الجاهل، ولكن الآنسة ماربل كانت لها خبرة في مجال التعامل مع الجريمة. ثم عادت بانش تقول: لقد قال لي الرجل قبل موته: «أرجوك»... كان يطلب منّي أن أؤدّي له خدمة، ومن المؤسف أنني لم أعرف شيئاً عن نوع الخدمة المطلوبة!

وصمتت الآنسة ماربل بُرهة ثم سألت قائلة: ولكن لماذا جاء أصلاً؟!

- تعرفين أن الإنسان إذا كان يريد الملجأ فإنه يستطيع أن يذهب إلى أية كنيسة ولا يحتاج إلى ركوب حافلة لا تقطع الرحلة

أكثر من أربع مرات في اليوم وليس له معارف في المكان الذي يقصده!

فقالت الآنسة ماربل: لقد جاء إلى المكان لغرض محدّد، ربما جاء كي يقابل شخصاً ما، فشيبنغ كليجهورن ليست بالمكان الكبير يا بانش. لا بدّ من أن يكون لديك فكرة عن الشخص الذي جاء لرؤيته.

استعرضت بانش أسماء كل سكّان القرية في ذهنها قبل أن تهزّ رأسها قائلة: قد يكون أي شخص من سكان القرية.

- ألم يذكر اسماً معيّناً؟

- قال جوليان، أو هذا ما خُيل إليّ... لقد سمعته. وربما قال جوليا، وبحسب ما أذكر لا توجد في قريتنا من تُسمى جوليا.

ثم عادت بانش تسترجع الذكريات فتذكّرت نظرات الرجل إلى الضوء الذي يتسرّب من النافذة كالجواهر باللونين الأحمر والأزرق وقالت فجأة: الجواهر، ربما كان هذا ما قاله.

فردّدت الآنسة ماربل بهدوء قائلة: الجواهر.

فقالت بانش: سأتكلّم عن أهمّ نقطة في الموضوع وهي السبب الذي من أجله جئت اليوم. لقد أثار إيكليس زوبعة من أجل استرداد سُترة القتيل التي خلعناها عنه ليفحصه الطبيب، وكانت سُترة قديمة رثّة، ولما لم يكُن لديهما سبب مقنع للحصول على تلك السّترة فقد ادّعيا أنها مسألة عاطفية، ولكن هذا ليس صحيحاً. على أية حال عندما صعدت الدرَج لأحضر

السّترة تذكّرت أن القتيل كان يضع يده على صدره كأنه يحرص على شيء معيّن، وعندما فحصت السّترة لاحظت أن البطانة الداخلية قد خيطت من عند الصدر بخيط مخالف للخيط الأصلي، فنزعت الخيط فعثرت على ورقة، ثم أعدت خياطة البطانة وسلّمت السّترة لإيكليس واعتذرت عن التأخير.

فسألتها الآنسة ماربل قائلة: وأين تلك الورقة؟

ففتحت بانش حقيبتها وأخرجت الورقة قائلة إنها لم تخبر جوليان وفضّلت أن تعرضها على الآنسة ماربل. لقد كانت الورقة عبارة عن وصل أمانة لحقيبة مودَعة في محطة السكة الحديدية في بادنغتون.

والتقت نظرات السيدتين فقالت الآنسة ماربل: حان وقت العمل، ولكن من الأفضل أن نكون حذرتَين فربما فطن إيكليس لما حدث. أأنت واثقة من أن أحداً لم يكُن يتبعك وأنت قادمة من لندن؟

- يتبعني؟! لا أظن.

- حسناً، أعتقد أن هذا محتمَل، لذا يجب أن نحتاط للأمر. لقد جئت من أجل الذهاب إلى محالّ تخفيض الأسعار لشراء بعض الحاجات، وهذا ما سنفعله. ولكن قبل ذلك سنفعل أمراً أو أمرين. لا أظن أنني سأكون بحاجة إلى السّترة القديمة ذات الحاشية العلوية الجلدية في الوقت الحاضر.

وبعد نحو ساعة ونصف كانت السيدتان تجلسان للراحة في أحد المطاعم الصغيرة بعد جولة المشتريات التي قامتا بها. ودخلت إلى المطعم شابة أنيقة تلفّتَت حولها ثم اتّجهت إلى

المائدة التي تجلس إليها الآنسة ماربل وسلّمتها ظرفاً، فقالت الآنسة ماربل: شكراً لك يا غلاديس، لقد كان كرماً منك أن تفعلي هذا من أجلي.

ثم انصرفت غلاديس، وألقت الآنسة ماربل نظرة إلى ما في الظرف ثم ناولته إلى بانش قائلة: والآن، كوني حذرة يا عزيزتي. بالمناسبة، هل ما يزال مفتّش الشرطة الشاب موجوداً في ميلشتر؟

- لا أعلم، ولكنني أتوقّع أنه ما يزال موجوداً؟

- حسناً، إذا لم يكُن موجوداً فأنا أستطيع الاتصال هاتفياً بمدير الشرطة، أعتقد أنه ما يزال يذكرني.

- لا شك في أنه يذكرك؛ فأنت فريدة من نوعك!

وعند وصولهما إلى محطّة بادنغتون توجّهت بانش إلى مخزن الأمانات وقدّمت الإيصال وتسلّمت حقيبة عتيقة حملتها وخرجت لتركب القطار إلى شيبنغ كليجهورن، وعندما اقتربت من محطّة الوصول حملت الحقيبة واقتربت من الباب، وعندما توقّف القطار ووضعت قدمها على الرصيف فوجئت برجل يندفع نحوها ويختطف الحقيبة من يدها ويسرع إلى الخارج فصرخت مستنجدة. وحاول مفتش المحطّة أن يعترض سبيل الرجل ولكنه لكمه وأسرع إلى سيارة تنتظره في الخارج فألقى الحقيبة داخلها، وبينما كان يوشك أن يركب السيارة أمسكت يدٌ قويه بكتفه، وارتفع صوت الشرطي أبيل قائلاً: ما الذي حدث؟

ووصلت بانش وهي تلهث فأخبرت الشرطي بأن ذلك الرجل اختطف حقيبتها، فأصرّ الرجل الأنيق على أن الحقيبة

تخصّه، ثم صدر صوت نسائي من داخل السيارة يقول: لا شك في أنها حقيبتك يا أدوين، أنا لا أفهم ما تعنيه هذه السيدة!

فقال الشرطي: سنتثبّت من ذلك. إذا كانت الحقيبة حقيبتك يا سيدتي فهل تستطيعين أن تخبريني بما فيها؟

- ملابس، سُترة قديمة ذات حاشية علوية مصنوعة من الجلد وقميصان من الصوف وحذاء قديم.

ثم التفت الشرطي نحو الرجل الطويل الأنيق فقال الرجل: أنا مصمّم ملابس مسرحية وهذه الحقيبة تضمّ بعض الملابس المسرحية التي أحضرتها بمناسبة عرض مسرحي للهواة.

فقال الشرطي: حسناً، سنعود إلى داخل المحطّة ونفتحها في مكتب المدير.

وضع الشرطي الحقيبة على المكتب، ولم تكُن مغلقة. ووقفت بانش والسيد أدوين كل على أحد جانبي الشرطي في انتظار النتيجة. وكانت في الحقيبة سُترة قديمة بحاشية علوية مصنوعة من الجلد وقميصان من الصوف وحذاء ريفي عتيق، فقال الشرطي: ما وُجد في الحقيبة كما ذكرت يا سيدتي.

بدأ الامتعاض يظهر على وجه الرجل الأنيق ثم اعتذر بأدب بالغ قائلاً: لا شكّ في أنني تركت حقيبتي في القطار ويجب أن ألحق به.

وعندما رأت بانش الرجل يخرج دون اعتراض من الشرطي سألته بدهشة قائلة: هل ستتركه يذهب؟

فغمز الشرطي بعينه وهو يقول: لن يبتعد كثيراً يا سيدتي،

أو لن يبتعد دون أن يكون تحت المراقبة على الأقل، فقد اتّصلت بنا السيدة العجوز؛ إنها بالغة الذكاء! ولن يدهشني أن يستدعيك مفتّش الشرطة غداً ليوجّه إليك بعض الأسئلة.

❊ ❊ ❊

جاء المفتّش كرادوك بنفسه، وهو المفتّش الشاب الذي ذكرته الآنسة ماربل. وبعد أن ألقى التحية قال: عادت الجريمة تحوم حول كليجهورن مرة أخرى.

- هل جئت لتوجّه إليّ بعض الأسئلة أم لتخبرني ببعض الأنباء يا سيدي؟

- سأخبرك ببعض الأنباء أولاً. لقد كنا نضع السيد إيكليس وزوجته تحت المراقبة منذ بعض الوقت؛ فلدينا اعتقاد بأنهما وراء كثير من السرقات التي حدثت في هذا المكان. والأمر الثاني أن للسيدة إيكليس شقيقاً يُدعى ساندبورن وصل من الخارج مؤخّراً، أما الشخص الذي عثرت عليه في الكنيسة بالأمس فهو شخص آخَر غير ساندبورن.

فأجابته بانش قائلة: أعرف هذا، واسمه والتر وليس ويليام.

- أجل، اسمه والتر سانت جون، وقد هرب من سجن شارنغتون منذ ثمان وأربعين ساعة.

- إذن فقد كان طريد العدالة، ولذلك لجأ إلى المحراب. ما الجُرم الذي ارتكبه؟

- يجب أن أرجع إلى الماضي البعيد، لقد كانت قصّة

معقّدة، فمنذ عدّة سنوات كانت توجد راقصة تؤدّي رقصاتها في بعض القاعات الموسيقية، ولا أظن أنك سمعت عنها، وكانت متخصّصة في رقصة تُسمى علاء الدين وكهف الجواهر، وكانت ترتدي ثوباً مرصّعاً بالجواهر الصناعية. لم تكُن راقصة بالمعنى الحقيقي إلا أنها كانت جذّابة، فأحبها شاب ينتمي إلى إحدى الأُسر المالكة في الهند وأهداها عقداً ثميناً من الزمرّد.

فتمتمت بصوت منخفض قائلة: ماسات تاريخية لأحد الراجات.

فسعل المفتش كرادوك ثم استطرد قائلاً: جواهر ثمينة ولكنها عصرية. ولم تستمرّ قصّة الحب طويلاً لأن الراقصة كانت تُرهقه بمطالبها، وتمسّكت زبيدة (وهذا هو اسم الراقصة) بالعقد، ولكنها سرعان ما قالت بأنه سُرق؛ فقد اختفى من غرفة الزينة المخصّصة لها في المسرح. وساورت الشرطة الشكوك في أنها اخترعت القصّة، ولم يظهر العقد بعد ذلك قطّ. وبينما كان رجال الشرطة يحقّقون استرعى انتباهَهم شخصٌ يُدعى والتر سانت جون، وكان رجلاً متعلّماً ومن أسرة طيّبة تنكّرت له الأيام وعمل لدى شركة صغيرة للجواهر كانت تحوم حولها الشبهات، وتوجد أدلّة على أن العقد الزمرّدي قد وصل إلى يدي والتر. على أية حال سُجن والتر بسبب اتّهامه بسرقة الجواهر، ومن الغريب أنه هرب من السجن عندما قاربت مدّة العقوبة على الانتهاء!

فسألته قائلة: ولماذا جاء إلى هنا؟

- هذا ما نبحث عنه يا سيدة هارمون. لقد كنا نتعقّبه عندما ذهب إلى لندن ولم يقابل سوى امرأة عجوز رفضت أن تُفصح

عن سبب زيارته لها. وتعمل السيدة باكوبس (وهذا هو اسمها) خيّاطة ملابس مسرحية، ولكننا علمنا من بعض الجيران أن والتر خرج من عندها يحمل حقيبة.

فقالت السيدة هارمون: فهمت، لقد ترك الحقيبة في محطّة بادنغتون ثم جاء إلى هنا.

- وفي ذلك الوقت كان إيكليس والرجل الذي يسمّي نفسه أدوين يتبعانه رغبة في الاستيلاء على الحقيبة؛ فقد شاهداه يركب الحافلة، ولا بدّ أنهما ركبا السيارة وانتظراه عند مغادرته الحافلة.

فسألته السيدة هارمون قائلة: ثم قتلاه هناك، أليس كذلك؟

- بلى، لقد أُطلق عليه الرصاص، وكان المسدس ملكاً لإيكليس إلا أنني أرجّح أن أدوين هو الذي أطلق النار. والآن يا سيدة هارمون الذي نريد أن نعرفه هو: أين ذهبت الحقيبة التي أودعها والتر سانت جون في أمانات محطّة بادنغتون؟

فأجابته قائلة: أعتقد أنها مع العمّة جين الآن، أعني الآنسة ماربل. تلك كانت خطّتها، فقد أرسلت خادمة تعمل بخدمتها بحقيبة تضمّ بعض ثيابها فأودعتها في المحطّة، ثم تبادلنا الإيصالات فأخذت أنا حقيبتها وحملتها إلى القطار، ويبدو أنها كانت تتوقّع محاولة اختطاف الحقيبة.

فهزّ المفتّش رأسه قائلاً: هذا ما أخبرتني به عندما اتّصلت بي هاتفياً. أنا ذاهب إلى لندن لمقابلتها. هل تحبين أن تأتي معي يا سيدة هارمون؟

ففكرت بُرهة ثم قالت: حسناً، كنت أشكو من أسناني في الليلة الماضية وسأنتهز الفرصة كي أذهب إلى طبيب الأسنان.

❊ ❊ ❊

استقبلتهما الآنسة ماربل مرحّبة، وكانت الحقيبة مغلَقة وأكّدت أنها لم تفتحها وإن كانت تستطيع أن تخمّن ما في داخلها. وعندما سألها المفتّش عن رأيها قالت: الأرجح أنها الملابس المسرحية التي كانت زبيدة ترتديها.

عندما فُتحت الحقيبة شهقت السيدتان وهما تريان الضوء ينعكس على كنز من الجواهر ذات الألوان الحمراء والزرقاء والخضراء والبرتقالي، ثم همست الآنسة ماربل قائلة: كهف علاء الدين... الجواهر التي كانت تلبسها الراقصة.

فسألها المفتش كرادوك قائلاً: هل تعتقدين أن هذه الجواهر ذات قيمة كي تُرتكب جريمة قتل من أجلها؟!

فأجابت الآنسة ماربل قائلة: تلك فتاة ذكيّة. هل ماتت؟

- نعم، ماتت منذ ثلاث سنوات.

فقالت الآنسة ماربل: كانت تمتلك العقد الزمرّدي الثمين، ثم خلعت الحجارة الثمينة وثبّتتها في ثوب الرقص كي يُخيّل إلى الجميع أنها جواهر صناعية وزوّدت العقد بجواهر زائفة، وعندما سُرق العقد عجز السارق عن تصريفه عندما اكتشف الحقيقة.

فقالت السيدة هارمون: وما هذا الظرف؟

فتح المفتّش الظرف فعثر في داخله على عقد زواج رسميّ

بين والتر سانت جون وماري (الاسم الحقيقي لزبيدة) وشهادة ميلاد ابنتهما جيويل. وعندما سمعت بانش الاسم هتفت قائلة: جيويل؟! جيويل؟ عرفت الآن سبب مجيئه إلى شيينغ كليجهورن. جيويل، هذا ما كان يريد أن يقوله لي. لقد تبنّى السيد مانداي وزوجته فتاة صغيرة وكانا يعاملانها على أنها حفيدتهما، اسمها جيويل وهم ينادونها جيل.

فقال المفتش: لقد أُصيبت السيدة مانداي بأزمة قلبية منذ أسبوع، وكان السيد مانداي قد أُصيب بالتهاب رئوي حاد، وكان من المفروض أن يُنقل العجوزان إلى المستشفى، وكنت أحاول أن أعثر على مكان تأوي إليه الصغيرة فلم أكُن أحب أن تذهب إلى الملجأ، وأعتقد أن أباها سمع القصة في السجن وتمكّن من الهرب ليستردّ الحقيبة من الخيّاطة العجوز. أنا أعتقد أن الجواهر إذا كانت ملكاً للأم فإنها قد أصبحت من حق الطفلة.

* * *

المزاح الغريب

عندما انتهت الممثّلة جين هيلار من تقديم الآنسة ماربل إلى شارميان ستررود، الشابة الحسناء النحيفة، والشاب ذي الشعر الناعم والقامة المديدة إدوارد روستير بدأت خيبة الأمل تظهر على وجهيهما بشكل ملحوظ، فتوجّهت الآنسة ماربل نحو السيد روستير بوجهها الهادئ وعينيها الزرقاوين ثم قالت: ألن تخبرني بالمشكلة التي تواجهك؟

فتدخّلت شارميان في الحديث قائلة بضيق: أنا وإدوارد في ورطة، وقد أخبرتنا هيلار بأنها ستقدّمنا إلى الشخص الذي... الذي باستطاعته أن... أن يحلّ...

وأراد إدوارد نجدتها فقال: أخبرتنا جين بأنك الصرخة الأخيرة في عالَم الشرطة السريّة.

فبرقت عينا العجوز وردّت بتواضع قائلة: آه، لا، لا، أنا مجرّد إنسانة تعيش في الريف مما أتاح لها أن تعرف الشيء الكثير عن الطبيعة البشرية. ولكنكما أثرتما فضولي، فهلاّ أخبرتماني بالمشكلة.

فقال إدوارد بتردّد: الموضوع يتعلّق بكنز مدفون.

- حقاً؟ يبدو أن هذا أمر مثير!

- أجل، كجزيرة الكنز. ما عد أننا لا نملك خريطة، وليست لدينا توجيهات مثل سِر أربع خطوات إلى اليسار، أو

علامات كالجمجمة والعظمتين المتقاطعتين... نحن في حيرة كاملة ولا ندري أين نحفر لنعثر على الكنز.

- هل بحثتما في الأماكن كلها؟

فقال إدوارد بأسى: لقد حفرنا مساحة تقرب من الميلين دون أدنى نجاح.

ثم تدخّلت شارميان في الحديث قائلة: هل تحبّين أن نقصّ عليك الأمر بالتفصيل؟

- بكل تأكيد يا عزيزتي.

- إذن دعنا نبحث عن مكان أكثر هدوءاً يا إدوارد.

صعدوا إلى غرفة صغيرة في الطابق الثاني، وحين جلسوا بدأت شارميان الحديث قائلة: تبدأ القصّة بالعم ماثيو، أو بمعنى أصحّ والد العمّ بالنسبة إلينا نحن الاثنين. لقد كان طاعناً في السن وكان يحبّنا أشدّ الحب؛ فقد كنت أنا وإدوارد أقاربه الوحيدَين. وقد أعلن أنه حين يموت سيترك ثروته كلّها لتوزّع بالتساوي بيني أنا وإدوارد، ولكن المشكلة تكمن في أن تلك الثروة كلّها لا شيء على الإطلاق، وكانت تلك بمثابة ضربة قاضية لنا نحن الاثنين، أليس كذلك يا إدوارد؟

فهزّ إدوارد رأسه مؤمّناً ثم قال: لقد اعتمدنا على الثروة المرتقبة، ومن ثم لم نسعَ إلى العمل الجاد الذي يكفل لنا الحياة بجهودنا، فأنا أعمل بالجيش وليس لي دخل آخَر، وعملت شارميان مديرة للمسرح بفرقة للهواة وهو عمل لا يدرّ دخلاً كبيراً. وكنا قد اتفقنا على الزواج، ولم تكُن مشكلة المال تزعجنا ونحن نعلم أننا سنرث ثروة ضخمة.

وقالت شارميان: والآن نجد أنفسنا، أنا وإدوارد، مضطرَّين إلى بيع آنسيز (منزل الأسرة) الذي نحبه. ونحن نشعر بالأسى الشديد لتفريطنا في المنزل، وإذا لم نعثر على المال الذي تركه العم ماثيو فسنُضطر إلى بيعه.

وقال إدوارد: أنت تعلمين أننا لم نصل إلى النقطة الحيوية يا شارميان بعد.

- تكلّم إذن.

فالتفت إدوارد نحو الآنسة ماربل قائلاً: كانت وسوسة العمّ ماثيو تزداد كلما تقدّم في العمر، ولم يكُن يثق بمخلوق.

فقالت الآنسة ماربل بهدوء: كانت تلك كلمة بالغة، وطبيعة الفساد في الخُلق البشري لا حدود لها.

- على أية حال، كان هذا تفكير العم ماثيو. لقد كان له صديق خسر ماله في المصرف وآخَر تعرّض لعملية احتيال وثالث ضاع ماله عندما أسهم في شركة وهميّة، لهذا فكّر العم ماثيو في أن خير وسيلة للمحافظة على المال هو تحويله إلى سبائك ذهب ودفنها.

فقالت الآنسة ماربل باهتمام: آه، بدأت أفهم المشكلة.

واستطرد إدوارد حديثه قائلاً: وقد عارضه بعض أصدقائه بحجّة أن المال لا يدرّ أرباحاً بهذه الطريقة، ولكنه أجابهم بأن ذلك لا يهمّ. «المهم هو أن تضع أموالك في صندوق تحفظه تحت السرير أو تدفنه في الحديقة»، تلك كانت كلماته.

قالت شارميان: وحين مات لم يترك أية أسهم بالرغم من أنه

كان ثرياً جداً! لهذا فنحن نعتقد أنه دفن الثروة في مكان ما.

وتدخّل إدوارد في الحديث قائلاً: لقد اكتشفنا أنه باع الأسهم في الفترة الأخيرة وسحب من المصرف مبالغ ضخمة في فترات متفرّقة أيضاً، ولا أحد يدري كيف تصرّف في تلك المبالغ! ولكن الراجح أنه تمسّك بمبادئه واشترى سبائك من الذهب ودفنها.

فسألتهم الآنسة ماربل قائلة: ألم يقُل شيئاً قبل موته؟ ألم يترك أوراقاً أو خطابات؟

- هذا هو الأمر الذي يبعث على الجنون؛ فهو لم يفعل شيئاً من ذلك. لقد ظلّ غائباً عن الوعي قبل وفاته لبضعة أيام، وحين أدركته صحوة الموت نظر إلينا معاً وضحك ضحكة فاترة ثم قال بضعف: «ستكونان بخير يا حمامتَي الصغيرتين»، وغطّى عينه اليمنى بيده وغمز بها، ثم مات العم المسكين!

فقالت الآنسة ماربل وهي تفكّر: غطّى عينه؟

سأل إدوارد بقلق: هل يعني ذلك شيئاً؟ لقد فكّرت في إحدى قصص أرسين لوبين عندما أخفى كنزاً داخل عين صناعية من الزجاج، ولكن العم ماثيو لم تكُن له عين زجاجية.

فهزّت الآنسة ماربل رأسها قائلة: أنا لا أستطيع أن أُدلي برأي الآن.

فردّت شارميان بمرارة قائلة: ولكن جين أخبرتنا بأنك سترشدينا في الحال إلى المكان الذي نبدأ الحفر به.

فابتسمت الآنسة ماربل قائلة: أنا لست ساحرة كما تعلمون،

ثم إنني لم أعرف عمّكم أو أي طراز كان من الرجال، كما أنني لا أعرف شيئاً عن طبيعة المنزل أو الأرض المحيطة به.

فسألتها شارميان باهتمام قائلة: وماذا لو كنت تعرفين المنزل والأرض؟

- سيصبح الحل في غاية البساطة.

فقالت شارميان: البساطة؟! تعالي إلى «آنسييز» لتري ما إذا كان الأمر على هذه الدرجة من البساطة أم لا.

وربما لم تكُن شارميان تعني توجيه الدعوة إلى الآنسة ماربل، ولكن الأخيرة أجابتها مباشرة قائلة: حسناً، هذا كرم زائد منك يا عزيزتي. طالما كنت توّاقة إلى البحث عن أحد الكنوز المدفونة، سيسعدني كثيراً أن أقوم بهذه المهمّة.

* * *

قاموا بجولة طويلة في المنزل والحديقة وحول الأشجار ولم يتركوا مكاناً إلا حفروا فيه، ثم توجّهوا إلى المخزن الذي أُفرغ كل ما فيه بحثاً عن الكنز المدفون، ثم هبطوا إلى السرداب وطرقوا على جميع الجدران بحثاً عن مكان مجوّف وقاسوا الجدران، وأطلعوا الآنسة ماربل على كل قطعة من التحف القديمة وقطع الأثاث لعل فيها مخابئ سرّية.

وعلى إحدى الطاولات كدّسوا كومة من الأوراق، وهي كل الأوراق التي خلّفها العم ماثيو فلم تُعدم ورقة واحدة، وأكد إدوارد وشارميان أنهما فحصا الأوراق لمرّات ومرّات، الإيصالات وبطاقات الدعوة والمراسلات الخاصة بالأعمال على

أمل أن يجدوا إشارة واحدة تهديهم إلى الكنز.

قالت شارميان برجاء: هل ترين مكاناً آخَر لم نبحث فيه؟

فهزّت الآنسة ماربل رأسها قائلة: يظهر أنكما بحثتما في كل مكان، ولكنني أعتقد أنه لا بدّ من وجود خطّة، أعني يجب أن نشحذ أذهاننا ونعاود التفكير في المكان الذي يحتمل...

فقاطعها إدوارد قائلاً: هل تفكّرين في مكان معيّن يا آنسة ماربل؟ لقد نفدت حيلنا أنا وشارميان.

- بالطبع يا عزيزي كان الأمر مرهِقاً بالنسبة إليكما، وإذا لم يكُن لديكما مانع فسألقي نظرة على هذه الأوراق.

- لا بأس، لكنك لن تجدي شيئاً فيها.

جلست الآنسة ماربل أمام الطاولة، وأخذت تفحص أكداس الوثائق وهي ترتّبها بحسب أنواعها في أكوام مستقلّة، ثم أخذت تحملق إلى الفضاء أمامها، فسألها إدوارد بقلق قائلاً: حسناً يا آنسة ماربل، هل وجدت شيئاً مفيداً؟

- لا، ولكنني أستطيع أن أخبركم بأنني عرفت الآن أي طراز من الرجال كان العم ماثيو. لقد كان قريب الشبه بعمّي هنري الذي كان مولعاً بالفكاهات الواضحة. شخص أعزب، ربما كان ذلك بسبب خيبة الأمل في حب في الشباب المبكر. لقد كان عقله منهجياً إلى حد ما، ولكنه لا يحب أن يكون مقيَّداً شأنه في ذلك شأن قلّة من العُزّاب.

وكانت شارميان تشير إلى إدوارد من وراء ظهر الآنسة ماربل بما يفيد أن تلك العجوز مخرّفة. ولكنها كانت سعيدة

بالحديث عن عمّها هنري فاستطردت قائلة: كان العم هنري شديد الولع بالتورية في كلامه، وبعض الناس تضايقه التورية؛ فالتلاعب بالألفاظ قد يكون مثيراً للأعصاب، وكذلك كان يشكّ في كل الناس ويعتقد بأن الخدم يسرقونه، وقد كانوا يفعلون ذلك بالفعل في بعض الأحيان وليس بصفة مستمرّة، وقد سيطرت تلك الفكرة على رأس عمّي المسكين. وفي آخِر أيام حياته بدأ يتوهّم بأن الخدم يعبثون بطعامه فأصرّ على أن لا يأكل شيئاً سوى البيض المسلوق، وكان يقول بأن أحداً لا يقدر على أن يعبث بما في البيضة. مسكين العم هنري! كان شديد المرح في بعض الأحيان، كما كان مولعاً بتناول القهوة بعد العشاء.

ونفد صبر إدوارد وشعر بأنه سيُجنّ إذا سمع المزيد عن العم هنري، ولكن الآنسة ماربل أكملت حديثها قائلة: وكذلك كان مولعاً بالصغار ويحب أن يضايقهم في بعض الأحيان، فكان يخبئ أكياس الحلوى في أماكن لا يستطيع الصغار أن يصلوها.

وضاقت شارميان ذرعاً بما تسمعه فتخلّت عن قواعد السلوك المهذب وقالت: أرى أن ذلك العم هنري كان فظيعاً!

- لا يا عزيزتي، لقد كان مجرّد عجوز أعزب غير معتاد على الأطفال، ولم يكُن غبياً بحال من الأحوال. وقد تعوّد على أن يحتفظ بقدر كبير من المال في المنزل، وكان يضع المال في الخزانة ويُكثر من الحديث عن تلك الخزانة قائلاً بأنها آمنة، ونتيجة لثرثرته تلك اقتحم اللصوص المنزل في ليلة ما وثقبوا الخزانة ببعض المواد الكيماوية.

فقال إدوارد متشفياً: لقد دفع الثمن.

- أجل، ولكن اللصوص لم يعثروا على شيء في الخزانة؛ فقد كان يخفي المال بين كتب الوعظ في مكتبته، وقال بأن الناس لا ينظرون إلى مثل هذا اللون من الكتب.

فسألها إدوارد بشوق قائلاً: فكرة! لنبحث في المكتبة؟

فهزّت شارميان رأسها بازدراء وهي تقول: وهل تظنّ أن تلك الفكرة لم تخطر على بالي؟ عندما ذهبت أنت في يوم الثلاثاء الماضي إلى بورت سموث لم أترك كتاباً إلا وبحثت فيه، فلم أعثر على شيء قطّ.

فتنهّد إدوارد ثم نهض وقد استقرّ عزمه على التخلّص من الضيفة المزعجة فقال لها: كان كرماً زائداً من جانبك أن تأتي إلى هنا وتحاولي مساعدتنا، ويؤسفني أن تذهب جهودك هباء، وأخشى أن نكون قد أخذنا الكثير من وقتك. على أية حال سأُخرج السيارة كي أوصلك إلى المحطة حتى لا يفوتك قطار الساعة الثالثة والنصف.

فأجابته الآنسة ماربل: آه، ولكن يجب علينا أن نبحث عن النقود، أليس كذلك؟ يجب أن لا نستسلم لليأس يا سيد روستير، وإذا فشلت فلا بدّ لك أن تحاول مرّة أخرى.

- هل تقصدين أنك ستواصلين البحث؟

- بالطبع، بل في الواقع أنا لم أبدأ بعدُ. المهم أن تمسك بالأرنب أولاً، هذا ما كانت تقوله السيدة بيتون في كتابها الذي ألّفته عن الطهي. وهو كتاب مدهش، ولكن الوجبات التي يتحدّث عنها مكلّفة للغاية... دعوني أتذكّر الموضوع الذي كنت أتحدث عنه، آه، نعم؛ كنت أقول يجب أن نمسك الأرنب أولاً،

والأرنب الذي نريد أن نمسكه هنا هو المخبأ، ولا بدّ من أن يكون المخبأ سهلاً.

فقالت شارميان بغيظ: سهل؟!

- نعم يا عزيزتي، أنا واثقة أن عمّك قد اختار مخبأ ظاهراً، أعني خزانة سرّية... هذا هو الحلّ الذي أراه.

فقال إدوارد بجفاء: ولكن الإنسان لا يضع سبائك الذهب في خزانة سرّية.

- لا بالطبع، ولكن لا يوجد سبب يدفعنا إلى التفكير في أن المال قد تحوّل إلى ذهب.

- لقد كان يردّد دائماً أن...

- كذلك كان العم هنري يتحدّث عن الخزانة، لهذا أرى أن كلام عمّك كان للتعمية. ربما كانت ماسات وبالتالي يمكن وضع الماس بسهولة في خزانة سرّية.

- ولكننا لم نترك قطعة أثاث إلا وفحصناها فحصاً جيداً، وقد استدعينا صانعاً للأثاث ليقوم بهذه المهمّة.

- كان ذلك ذكاءً من جانبك يا عزيزتي! أنا أرجّح أن يكون مكتب عمّك هو أكثر الأماكن احتمالاً لإخفاء الكنز. هل كان يستخدم طاولة الكتابة الطويلة المثبّتة في الحائط هناك؟

فقالت شارميان وهي تتّجه نحوها: نعم، وسأدعك ترين بنفسك.

ثم أخرجت لسان المنضدة فظهرت من داخله بضع خزانات صغيرة، ثم فتحت باباً في وسطها وضغطت على زنبرك

في الخزانة اليسرى، فسمعت صوتاً ضعيفاً في القاع وانزلقت خزانة سرية إلى الأمام، وأخرجت شارميان الخزانة، وكان يوجد تجويف من تحته، ولكن الموضع كان خالياً، فقالت الآنسة ماربل: كان للعم هنري خزانة مشابهة لهذه عدا أن لونها كان بلون الجوز وهذه الخزانة بلون الموهوجني.

فقالت شارميان: على أية حال فالوضع كما ترين، لا يوجد شيء هنا.

فقالت الآنسة ماربل: أعتقد بأن صانع الأثاث الذي استدعيتِه شاب حديث السن لا يعرف كل شيء. لقد كان الصانع في الماضي على درجة كبيرة من المهارة وكان بارعاً في صناعة الخزانات السرّية.

ثم أخرجت الآنسة ماربل دبّوس شعر من رأسها وفتحته، ثم أدخلت طرفه في ما كان يبدو للعين كثقب صغير في جانب من الخزانة السرّية، وعندئذ انفتح دُرج سري وظهرت فيه حزمة من الرسائل التي بهت لون كتابتها ومعها ورقة مطويّة، فوثب إدوارد وشارميان من شدّة الدهشة.

وأمسك إدوارد الورقة بأصابع مرتعدة وفتحها، ثم ألقاها على الأرض بازدراء قائلاً: وصفة لإعداد وجبة من الطعام!

وفتحت شارميان الرباط الذي رُبطت به حزمة الخطابات، وأمسكت أحد الخطابات وألقت عليه نظرة عاجلة ثم همست قائلة: خطابات غرامية!

فقالت الآنسة ماربل بحماسة: يا له من أمر مسلّ! ربما كان هذا هو سبب عدم زواج عمّك.

قرأت شارميان بصوت مرتفع ما في الرسالة، وكانت رسالة عاطفية. ثم توقّفت عن القراءة وسألت قائلة: من أية بلاد كان هذا الخطاب؟ آه، من هاواي. وهذا هو توقيع مرسِلة الخطاب: «بيتي مارتن».

فأطلق إدوارد صفيراً من فمه قائلاً: إذن فقد كانت هذه قصّة حب العم ماثيو! ولكن لماذا لم يتزوجا؟

فقالت شارميان معقّبة على ذلك: يظهر أنها كانت تطوف كل بلاد العالم.

ثم ألقت نظرة أخرى على الخطابات واستطردت قائلة: موريشيوس وبلاد أخرى كثيرة! ربما تكون قد ماتت نتيجة إصابتها بالحمى الصفراء.

فزع الشابان عندما سمعا ضحكة الآنسة ماربل، ونظرا إلى العجوز التي بدأ الابتهاج يظهر على وجهها، وقالت العجوز: حسناً، ولكن ما رأيكم في الأمر كله؟

فأشرق وجه إدوارد فجأة وهو يقول: هل تعتقدين أنها شفرة معيّنة؟

ثم أمسك إدوارد بالورقة والتفت نحو شارميان قائلاً: ألا ترين يا شارميان؟ إنها قد تكون شفرة لأنه لا يوجد سبب مقنع لوجود وصفة لإعداد وجبة طعام في خزانة سرّية.

قالت الآنسة ماربل: صحيح، هذه ملاحظة لها وجاهتها.

وقالت شارميان: ربما كانت هذه الورقة مكتوبة بحبر سرّي، فلنعرّضها إلى الحرارة.

ونفّذ إدوارد الفكرة ولكن لم تظهر أية كتابة سرّية، فسعلت الآنسة ماربل ثم قالت: أعتقد أنكما تحوّلان المسألة السهلة إلى مشكلة صعبة! هذه الوصفة ليست أكثر من إشارة، وأعتقد أن الخطابات هي التي تعنينا.

- الخطابات؟!

- التوقيع بصفة خاصة.

فصرخ إدوارد بانفعال قائلاً: شارميان، اقتربي منّي، ألا ترين أن الأظرف قديمة؟ ولكن الخطابات نفسها مكتوبة منذ زمن قريب!

فردّت الآنسة ماربل بابتسام قائلة: صحيح.

- أراهن على أن العمّ ماثيو هو الذي كتبها بخطّ يده.

فعادت الآنسة ماربل تقول: صحيح.

- إذن فالأمر كله مختلف! لم تكُن توجد أية مراسلات، لا بدّ أن هذه شفرة.

فقالت الآنسة ماربل بهدوء: يا أبنائي الأعزاء، لا داعي إلى تعقيد المسألة بهذه الصورة. لقد كان العم ماثيو رجلاً بالغ البساطة وأراد أن يمزح مزحة صغيرة، هذا كل ما في الأمر.

ولأول مرّة أولاها الشابان اهتمامهما، وسألت شارميان قائلة: ما الذي تقصدينه بالتحديد يا آنسة ماربل؟

- الذي أعنيه أنكما تمسكان المال بين أصابعكما في هذه اللحظة.

حملقت شارميان إلى الخطابين، فقالت الآنسة ماربل: فخذُ البقرة والسبانخ... ما معنى هذا؟ لا شك أنه عبث، إذن فالخطابات هي الشيء المهمّ. والآن تأمّلا ما فعله العمّ ماثيو قبل وفاته. ألم تقولا بأنه دقّ على عينه؟ حسناً، هذا هو مفتاح السرّ.

فقالت شارميان بانفعال: هل نحن المجانين أم أنت المجنونة؟!

فأجابت الآنسة ماربل بهدوء: بالتأكيد ما قلته صحيح يا سيد روستير، لا توجد سيدة تُدعى بيتي مارتن؛ فقد كان عمك هو الذي كتب الخطابات. وكما ذكرت فإن الكتابة على الأظرف قديمة والأظرف لا تمتّ بصلة إلى الخطابات نفسها لأن طابع البريد الموضوع على الظرف تاريخه يعود إلى العام ١٨٥١.

وتوقّفت الآنسة ماربل عن الحديث برهة ثم استطردت قائلة: ١٨٥١، هذا يشرح كل شيء، أليس كذلك؟

فقال إدوارد بحيرة: ليس بالنسبة إليّ.

- ولا بالنسبة إليّ أنا أيضاً لولا حفيد ابن خالي ليونيل، وهو صبي لطيف يهوى جمع طوابع البريد ويعرف عنها كل شيء، وقد كان هو الذي حدّثني عن الطوابع النادرة التي تساوي الكثير. وقد أخبرني بأن طابعاً قديماً عُرض في أحد المزادات، وأذكر أن ذلك الطابع كان صادراً في العام ١٨٥١ وكان أزرق اللون وقيمته سنتان، وقد بيع بخمسة وعشرين ألف دولار! وأعتقد أن بقية الطوابع الملصَقة على الأظرف الأخرى نادرة وثمينة، ولا شك في أن العم ماثيو اشترى تلك الطوابع النادرة

وكان شديد الحرص على أن ينجز ذلك في الخفاء كما يحدث في القصص البوليسية!

فدفن إدوارد رأسه بين يديه، وسألته شارميان: ماذا بك؟

- لا شيء، ولكن لولا الآنسة ماربل لأحرقنا هذه الخطابات.

فقالت الآنسة ماربل: آه! هذا ما لم يخطر قطّ على بال أولئك السادة وهم يعدّون فرحتهم. أذكر أن العم هنري أرسل إلى إحدى بنات أخته ورقة مالية من فئة الخمسة جنيهات هدية بمناسبة رأس السنة ووضعها في ظرف أغلقه بالصمغ وكتب عليه: «مع حبّي وأطيب تمنّياتي، يؤسفني أن أخبركم بأن هذا هو ما أستطيع أن أرسله في هذا العام». واستاءت الصغيرة إزاء ما عدّته بُخلاً فألقت الظرف في النار، فاضطر العم هنري إلى أن يعطيها ورقة مالية أخرى.

وفي الحال تغيّرت فكرة إدوارد عن العم هنري وقال: آنسة ماربل، إن العم هنري هذا هو أعظم عم في العالم!

* * *

شريط القياس القاتل

أمسكت الآنسة بوليت مطرقة الباب وقرعت بها الباب بلطف وانتظرت بُرهة قبل أن تكرّر الطرق للمرّة الثانية، واهتزت اللفافة التي كانت تحملها تحت أبطها فأحكمت وضعها.

وكانت تلك اللفافة تضمّ ثوب الشتاء الأخضر الجديد الذي أعدّته للسيدة سبنلو، وكانت الآنسة بوليت تحمل في اليد الأخرى حقيبة من الحرير الأسود فيها شريط القياس وعلبة الدبابيس ومقصاً كبيراً للتفصيل.

كانت الآنسة بوليت سيدة طويلة نحيلة ذات أنف مدبّب وشفاه مغضنة وشعر رمادي، وقد بدأت حياتها كوصيفة. وتردّدت الآنسة بوليت قبل أن تستخدم المطرقة للمرّة الثالثة، ثم ألقت بنظرة إلى الطريق فلمحت شبحاً يقترب بسرعة. وكانت القادمة هي الآنسة هارتنيل، وهي سيدة في نحو الخامسة والخمسين من عمرها، فصرخت بصوتها الحاد قائلة: مساء الخير يا آنسة بوليت.

فأجابتها الآنسة بوليت قائلة: مساء الخير يا آنسة هارتنيل.

قالت الآنسة بوليت: معذرة، هل لديك فكرة عمّا إذا كانت السيدة سبنلو في المنزل أم لا؟

- لا، ليست لديّ فكرة.

– هذا شيء محيّر؛ لقد جئت لأقوم بتجربة ثوبها الجديد وفقاً لموعدنا في الثالثة والنصف.

فنظرت الآنسة هارتنيل إلى ساعتها وقالت: لقد تجاوزت الساعة الثالثة والنصف بقليل.

– لقد طرقت على الباب ثلاث مرات ولم يُجِبني أحد، فتساءلت عمّا إذا كانت السيدة سبنلو قد نسيت الموعد، ولكنني أعلم أنها حريصة على مواعيدها وهي تريد أن ترتدي هذا الثوب بعد غد.

وقفت الآنسة هارتنيل مع الآنسة بوليت أمام الباب، ثم قالت الآنسة بوليت: لماذا لم تفتح غلاديس الباب؟

فأجابتها الآنسة هارتنيل قائلة: هذا يوم الخميس وهو موعد إجازة غلاديس، وربما كانت السيدة سبنلو نائمة. أعتقد أنك لم تطرقي الباب بصوت يكفي لتنبيهها.

فطرقت الآنسة هارتنيل الباب بصوت مزعج دون أن تتلقّى إجابة، ثم رأت أن تتّجه نحو النافذة المطلّة على الحديقة لتلقي نظرة إلى الداخل، فرأت من خلال النافذة ربّة المنزل ملقاة على الأرض ميّتة.

❊ ❊ ❊

قالت الآنسة هارتنيل وهي تروي القصة بعد ذلك: بالطبع لقد سيطرت على أعصابي، وأُصيبت الآنسة بوليت بالارتياع ولم تعُد تدري ما يجب عليها أن تفعله، فقلت لها: يجب أن نتمالك أعصابنا، عليك أن تبقي هنا في حين أذهب أنا كي أبلغ

الشرطة بذلك. فأخبرتني بأنها لا تحب أن تُترَك وحدها، ولكنني لم أُعرها التفاتاً؛ إذ يجب على الإنسان أن يتعامل مع مثل هذا الطراز بصلابة، ولهذا هممت بأن أتركها، وفي نفس اللحظة ظهر السيد سبنلو قادماً نحو رُكن المنزل.

ثم التزمت الآنسة هارتنيل الصمت بُرهة كي يسألها المستمعون إلى القصّة بشوق قائلين: أخبرينا، كيف كان حال السيد سبنلو؟

ثم تجيب هي قائلة: بصراحة، لقد أثار شكوكي في الحال؛ فقد كان هادئاً بشكل غير عادي، فلم تظهر عليه أدنى مظاهر الدهشة. وعندما يسمع الرجل أن زوجته ماتت ولا يظهر أي لون من المشاعر فهذا موقف غير طبيعي!

ووافقها الجميع على رأيها، وكذلك كان هذا هو رأي الشرطة الذين لم يضيّعوا الوقت، وفي التوّ بدؤوا يدرسون وضع السيد سبنلو بعد وفاة زوجته، وعندما اكتشفوا أن الزوجة هي التي تملك المال وأن هذا المال سيرثه الزوج بعد وفاتها وفقاً لوصية حُرّرت بعد زواجهما مباشرة تزايدت شكوك الشرطة عن ذي قبل.

أما الآنسة ماربل، تلك السيدة ذات الوجه الصبوح (ويقول بعضهم ذات اللسان السليط) التي كانت تعيش في المنزل المجاور فقد تلقّت زيارة من رجال الشرطة بعد نصف ساعة من اكتشاف الجريمة، فقد جاءها الشرطي بالك يحمل دفتر مذكّراته بحرص وقال لها: أرجو أن لا يكون لديك مانع من توجيه بعض الأسئلة يا سيدتي.

فقالت له الآنسة ماربل: بخصوص مصرع السيدة سبنلو، أليس كذلك؟

فدُهش بالك وقال: هل تسمحين لي بأن أسألك من أين علمت بالخبر يا سيدتي؟

- السمَك.

وكان للردّ معناه الذي أدركه الشرطي بالك؛ فقد استنتج أن الصبيّ الذي يعمل لدى بائع السمَك قد نقل إليها الخبر وهو يحمل لها وجبة العشاء، ثم استطردت الآنسة ماربل حديثها قائلة برقّة: وجدوها راقدة على الأرض مخنوقة، ربما خُنقت بحزام رفيع، ولكن مهما كان ذلك الشيء فقد أُبعد عن المكان.

فقال الشرطي بالك بغيظ: ذلك الصبي يعرف كل شيء و...

فقاطعته الآنسة ماربل قائلة: يوجد دبّوس عالق بمعطفك.

فنزع بالك الدبوس بانفعال ثم قال: إذا رأيت دبوساً فانزعيه كي يصادفك الحظّ الحسن طوال اليوم.

- أرجو أن يتحقّق ذلك الفأل. والآن ما الذي تريد أن تعرفه منّي؟

فنظر الشرطي بالك إلى دفتره باهتمام ثم قال: لقد أتى تقرير إليّ من السيد سبنلو زوج المتوفّاة يقول إنه في نحو الساعة الثانية والنصف تلقّى مكالمة هاتفية من الآنسة ماربل التي طلبت منه أن يمرّ عليها في الساعة الثالثة إلا خمس عشرة دقيقة؛ إذ

كان لديها موضوع مهمّ تريد أن تستشيره فيه. والآن أسألك يا سيدتي، هل هذا صحيح؟

- بالطبع لا.

- ألم تتصلي هاتفياً في الساعة الثانية والنصف بالسيد سبنلو؟

- لا في الثانية والنصف ولا في أي وقت آخَر.

فقال الشرطي وهو يعبث بشاربه: آه.

ثم سألته الآنسة ماربل قائلة: وماذا قال السيد سبنلو غير ذلك؟

- قال بأنه حضر من أجل الموعد بعدما غادر منزله في الثالثة إلا عشر دقائق، وعندما وصل أخبرته خادمتك بأنك لست في المنزل.

- هذا القول صحيح؛ فقد كنت أحضر اجتماعاً في المعهد النسائي. ولكن قل لي: هل تشتبه في السيد سبنلو؟

- ليس لي أن أحكم في المرحلة الحالية، ولكن يظهر أن شخصاً (دون تحديد الأسماء) كان يحاول أن يتصرّف بذكاء.

فسألته الآنسة ماربل وهي تفكّر قائلة: هل هو السيد سبنلو؟

* * *

كانت العجوز تشعر بميل نحو السيد سبنلو، وكان الأخير رجلاً صغير الجسم متّزناً في حديثه ومحترماً، وكان من الغريب

أن يأتي ليعيش في الريف بعد أن اعتاد على حياة المدن طول عمره. وقد صارحها بالسبب قائلاً: كانت تراودني الرغبة منذ طفولتي بالحياة في الريف وأن تكون لي حديقتي الخاصة، فأنا مولَع بالورود كثيراً، وكما تعلمين كانت زوجتي تمتلك متجراً لبيع الورود، كما أنني رأيتها لأول مرّة في محلّ الزهور.

في الواقع لم يكُن السيد سبنلو يعرف شيئاً عن الزهور ولم تكُن لديه أية فكرة عن البذور أو قطف الزهور أو مواعيد ازدهارها، بل كان لديه مجرّد تصوّر لحديقة صغيرة تحيط بأحد البيوت مزروعة بالورود والأزهار ذات الرائحة الزكية، وقد سأل الآنسة ماربل عدّة أسئلة عن الزهور ودوّن إجاباتها في مفكّرة صغيرة.

كان الرجل هادئ الطباع، وربما اتّجهت إليه الشكوك نتيجة لذلك عندما قُتلت زوجته، وبالصبر والمثابرة تمكّن رجال الشرطة من أن يجمعوا قدراً كبيراً من المعلومات عن السيدة سبنلو، وسرعان ما علم سكان قرية سانت ماري ميد كلّهم بتلك المعلومات.

لقد بدأت السيدة سبنلو حياتها كمساعدة لوصيفة في أحد البيوت الكبيرة ثم تركت عملها لتتزوّج البستاني، ومع ذلك الزوج أسّست محلاً لبيع الزهور في لندن، ثم ازدهر العمل، ولكن الزوج سرعان ما مرض وأدركه الموت، ولكن الأرملة واصلت عملها في محل الزهور ودفعها الطموح إلى توسعته. وتحقّق لها بعض الثراء، ثم باعت المحل بسعر مغرٍ وتزوجت للمرة الثانية بالسيد سبنلو، وهو رجل في منتصف العمر كان يعمل في صناعة الجواهر، وقد ورث ورشة صغيرة ولكن لم

يُكتب لها النجاح، ولم يمرّ وقت طويل حتى باع الورشة وجاء ليعيش في سانت ماري ميد.

أما السيدة سبنلو فقد كانت سيدة مدبّرة، فاستثمرت المال الذي ربحته من محلّ الزهور بناء على إرشاد الأرواح التي كانت تدلّها على أفضل الطرُق لتنمية ثروتها... هذا ما كانت تشرحه لكل من تعرفه! وإزاء نمو ثروتها زاد اعتقادها في الأرواح، ثم تخلّت السيدة سبنلو عن حضور جلسات تحضير الأرواح وبدأت تقوم ببعض الرياضات التي يقوم بها بعض الهنود، وهذه الحركات عبارة عن أشكال مختلفة من التنفس العميق.

وبعد مجيئها إلى سانت ماري ميد تديّنت وصارت تقضي أوقاتاً كثيرة في الكنيسة، ثم تعاونت مع محالّ القرية وأظهرت اهتمامها بالأحداث التي تحدث في القرية. باختصار كانت تشغل نفسها كالنحلة، وفجأة تعرّضت للقتل.

* * *

استدعى الضابط ميلشيت مديرُ الشرطة المفتّشَ سلاك، وكان المفتّش من ذلك الطراز الإيجابي الذي يعمل بسرعة حتى إذا استقرّ رأيه على فكرة تمسّك بها، وقد تحرّك المفتّش سلاك بسرعة واقتنع بالنتائج التي توصّل إليها. قال لمدير الشرطة: أنا واثق من أن الزوج هو القاتل.

- هل تعتقد ذلك حقاً؟

- أنا واثق كل الثقة يا سيدي، يكفي أن تُلقي عليه نظرة واحدة كي تعرف أنه مذنب. إنه لم تظهر عليه علامة واحدة

تدلّ على الأسى أو الانفعال! لقد عاد إلى المنزل وهو يعلم أن زوجته ميّتة.

- ألم يحاول أن يمثّل دور الزوج ذي الفكر الشارد على الأقل؟

- إنه ليس من ذلك الطراز من الرجال يا سيدي، فهو واثق من نفسه، ومثل هذا الطراز لا يمثّل.

فسأله الضابط ميلشيت قائلاً: ألا توجد امرأة أخرى في حياته؟

- لم أتمكّن من اكتشاف أي أثر لذلك، فأنت تعلم أن مثل ذلك الطراز شديد الحذر ويستطيع أن يخفي كل الآثار يا سيدي. أرى أنه ضاق ذرعاً بزوجته؛ فقد كانت هي التي تملك المال كما أنها هي الطرف المسيطر الذي يحظى بالتقدير، ومن ثم قرّر أن يقتلها ليرث المال ويعيش في عيش رغيد بعد ذلك.

- نعم، ربما كان الأمر كما تقول.

- هذا مؤكّد يا سيدي، وقد خطّط الزوج لجريمته بعناية وادّعى أنه تلقّى مكالمة هاتفية من...

فقاطعه ميلشيت قائلاً: ألم تحاولوا التحقّق من المكالمة؟

- بلى، حاولنا يا سيدي، وأرى أنه إما أن يكون كاذباً أو أن الاتصال كان من هاتف عموميّ، ولا يوجد في القرية سوى هاتفَين عموميّين أحدهما في محطّة السكة الحديدية والثاني في مكتب البريد. وتوجد استحالة بالنسبة إلى مكتب البريد؛ فالسيدة بليد ترى أي إنسان يدخل إلى المكتب، ويوجد احتمال

بالنسبة إلى السكة الحديد؛ إذ يصل قطار في الساعة الثانية وسبع وثلاثين دقيقة وحينئذ تحدث جلبة. ولكن الشيء الملفت للنظر هو أن الزوج يقول إن الآنسة ماربل هل التي اتّصلت به، ومن المؤكّد أن هذا غير صحيح فالاتصال لم يكُن من المنزل، كما أن الآنسة ماربل نفسها كانت في الخارج.

- ألم يخطر ببالك احتمال أن يكون شخص قد اتّصل بالزوج ليبعده عن المنزل كي يتمكّن من ارتكاب جريمته؟

- أنت تفكّر في تيد غيرارد يا سيدي، أليس كذلك؟ لقد كنت أتابع حال ذلك الشاب، ورأيت أنه ينقصه الدافع إلى ارتكاب الجريمة؛ فهو لا يفيد شيئاً من وراء مصرع السيدة سبنلو.

- ومع هذا فهو شخصية غير مرغوب فيها وسبق أن اتُّهم بابتزاز المال.

- أنا لا أقول بأنه فوق مستوى الشبهات. صحيح أنه ابتزّ بعض الأموال من مخدومه ولكن رؤساءه لم يكونوا حريصين.

- أهو من جماعة أكسفورد؟

- نعم يا سيدي، لقد تحوّل إلى تلك الجماعة الدينية ليُظهر للناس أنه قرّر أن يسير في الطريق المستقيمة. ربما يكون قد أدرك أن الشكوك تحوم حوله فقرّر أن يلعب دور الشخص الشريف الذي تاب عن ارتكاب الذنوب.

فقال الضابط ميلشيت: إن لك عقلية خاصة يا سلاك! بالمناسبة ألم تتحدّث إلى الآنسة ماربل قطّ؟

- وما دخلها في هذه القضية يا سيدي؟

- لا شيء، ولكنها تسمع الأخبار كما تعلم. لماذا لا تقابلها وتتبادل معها الحديث؟ إنها سيدة عجوز حادّة الذكاء.

وحاول سلاك تغيير مجرى الحديث قائلاً: يوجد أمر واحد كنت أريد أن أسألك عنه يا سيدي، وهو وظيفة مساعدة الوصيفة التي كانت تشغلها القتيلة في أول شبابها في قصر السيد روبرت أبركرومبي حيث سُرقت مجموعة من الجواهر، وهي كمية من أحجار الزمرّد الثمينة ولم يُعثر عليها قطّ. لقد بحثت في الموضوع، ولا شك في أن السرقة حدثت في فترة عمل السيدة سبنلو في القصر بالرغم من أنها كانت صغيرة السن في ذلك الوقت. ألا تعتقد أن السيدة سبنلو اشتركت في تلك السرقة بوسيلة أو بأخرى؟ سيدي، أنت تعلم أن السيد سبنلو كان يعمل في ورشة صغيرة لصناعة الجواهر ويمكن أن يُتّخذ كستار في مثل تلك العملية.

فهزّ ميلشيت رأسه وهو يقول: لا أعتقد هذا لأنها لم تكُن تعرف سبنلو في ذلك الوقت. أنا أذكر القضية، ودوائر الشرطة تعتقد بأن أحد الأبناء في القصر هو المسؤول عمّا حدث. يوجد شاب صغير يُدعى جيم أبركرومبي كان غارقاً في الديون ثم سدّد ديونه كلها بعد وقوع السرقة مباشرة، ويُقال بأنها كانت امرأة ثرية، وقد أصرّ أبركرومبي الأب على إنهاء الموضوع وتوقّف رجال الشرطة عن التحقيق في القضية.

قال سلاك باستسلام: كانت مجرّد فكرة طارئة يا سيدي.

* * *

استقبلت الآنسة ماربل المفتّش سلاك بسرور لا سيما عندما عرفت أنه موفَد بناءً على توجيه من الضابط ميلشيت. قالت العجوز: هذه لَفتة كريمة من الضابط ميلشيت! لم أكُن أتصوّر أنه لا يزال يذكرني!

- الضابط ميلشيت يذكرك بكل تأكيد، وقد أخبرني بأن الشيء الذي لا تعيرينه أهمية من أخبار سانت ماري ميد هي الأخبار التي لا تساوي شيئاً.

- هذا لطف زائد من جانبه، ولكنني لا أعرف شيئاً عن هذه الجريمة حقاً.

- ولكنك تعرفين الأخبار التي تدور على الألسنة.

- بالطبع، ولكن هذا لن يفيد، فما جدوى تكرار الكلام المُعاد؟

- ليس هذا الحوار رسمياً بل هو حوار خاص بيني وبينك.

- أتريد أن تعرف رأي الناس حقاً؟ وهل يوجد شيء من الصدق فيما يقولون أم لا؟

- هذه هي الفكرة.

- حسناً، يوجد قدر كبير من الكلام والآراء، وفي الواقع يوجد معسكران، الأول الذي يرى أن الزوج هو القاتل؛ فالزوج أو الزوجة هو الشخص الطبيعي الذي تتّجه إليه أصابع الاتهام. ألا تشاركني هذا الرأي؟

فأجاب المفتش بحذر قائلاً: بلى، أشاركك.

- الزوج أو الزوجة أقرب الناس إلى مسرح الجريمة، وعادة يكون المال هو الدافع، وقد سمعت أن السيدة سبنلو كانت هي الطرف الذي يملك المال، لهذا فأوّل من يفيد من موتها هو السيد سبنلو.

- السيد سبنلو سيرث قدراً طبياً من المال حقاً.

- أجل، هذا الافتراض هو الأكثر احتمالاً. يخنق الزوج زوجته ويغادر المنزل من الباب الخلفيّ ثم يعود من الحقول متّجهاً نحو بيتي ليسأل عنّي مدّعياً أنه تلقّى اتصالاً هاتفياً منّي، ثم يعود إلى المنزل بعد ذلك ليكتشف أن زوجته قُتلت في غيابه، وبالتأكيد يأمل في أن تُنسب الجريمة إلى لص أو أحد المتشرّدين.

فهزّ المفتش رأسه مؤمّناً ثم قال: وماذا عن المال؟ هل كانا على خلاف في الفترة الأخيرة؟

- لا، قطّ.

- هل تعرفين ذلك كحقيقة مؤكَّدة؟

- لو حدث خلاف بين الزوجين لعرف به الجميع؛ فالخادمة غلاديس برينت هي محطّة الإذاعة المتنقّلة في القرية.

فقال بتردّد: ربما لم تكُن للخادمة معرفة بهذه الأمور.

فاستطردت الآنسة ماربل حديثها قائلة: كما يوجد تيد غيرارد، وهو شاب وسيم وفتيات القرية كلهنّ يُظهرن إعجابهنّ به وتنهال عليه الهدايا من جانبهنّ. وبفضل الشاب ازداد عدد السيدات اللاتي يشاركن في نشاط الأبرشية، وهو الأمر الذي

يوقع الشاب في حيرة شديدة. ولكن دعني أتذكّر أين كان؟ آه، نعم. لقد كانت الإشاعات تتردّد بشأن ذلك الشاب؛ فقد كان يذهب لزيارتها كثيراً بالرغم من أن السيدة سبنلو أخبرتني شخصياً بأنه مجرّد عضو في جماعة أكسفورد، وهي حركة دينية أعضاؤها من الأشخاص الجادّين المخلصين في إيمانهم، وكانت السيدة سبنلو واحدة من الأعضاء المتحمّسين.

وصمتت الآنسة ماربل بُرهة لتلتقط أنفاسها ثم استطردت قائلة: ومن جانبي أستطيع أن أؤكّد أنه لا يوجد سبب واحد يشير إلى وجود علاقة أخرى بينهما، ولكنك تعرف طبائع الناس، فيوجد قدر كبير من الناس مقتنع بأن السيدة سبنلو كانت مفتونة بالشاب، وقد أقرضته قدراً من المال لا يُستهان به، وقد شوهد في محطّة السكة الحديدية في ذلك اليوم في القطار الذي يصل في الساعة الثالثة وسبع وعشرين دقيقة، وطبعاً من السهل أن يتسلل من الجانب الآخَر للقطار ليقفز من فوق السور ولا يخرج من الباب ومن ثَم لا يراه أحد وهو ذاهب إلى الكوخ.

- وماذا يقول الناس أيضاً؟

- يقولون إن الملابس التي كانت ترتديها السيدة سبنلو حين قُتلت كانت غريبة.

- غريبة؟

- لم تكن ترتدي ملابس عادية بل روب الحمّام، ومثل هذا اللباس يوحي بأفكار معيّنة لبعض الناس.

- وهل تعتقدين أنت أن ارتداء ذلك الزيّ يعني شيئاً؟

- لا، بل على العكس أرى أن ارتداءه كان أمراً طبيعياً.

- أتعتقدين أن ارتداء مثل هذا اللباس أمر طبيعي؟

- نعم، في تلك الظروف.

- ألا يعطينا ذلك دافعاً آخَر للقتل، وهو غيرة الزوج؟

فردّت الآنسة ماربل قائلة: لا، لم تكُن الغيرة من طباع السيد سبنلو، فهو ليس من ذلك الطراز من الرجال الذي يلاحظ مثل هذه الأمور.

فظهرت الحيرة على وجه المفتّش سلاك من الطريقة التي كانت الآنسة ماربل تتحدّث بها إليه، وكانت لديه فكرة بأن حوارها كله يرمي إلى توجيه نظره إلى شيء لم يفهمه، ثم قالت الآنسة ماربل بلهجة ذات معنى: ألم تعثر في مكان الجريمة على أية آثار؟

- لم يعُد الناس يتركون بصمات أصابعهم أو بقايا لفافات التبغ يا آنسة ماربل!

- ولكنني أعتقد أن هذه الجريمة من الطراز القديم.

فقال سلاك بحدّة: ماذا تقصدين بقولك هذا؟

فأجابت الآنسة ماربل قائلة بلهجة بطيئة: أعني أن الشرطي بالك كان يستطيع أن يساعدك لأنه كان أول شخص دخل إلى مسرح الجريمة. هذا ما سمعتهم يقولونه.

❊ ❊ ❊

كان السيد سبنلو يجلس على مقعد من القماش والحيرة تظهر على وجهه ثم قال بصوته الرفيع: أستطيع أن أتصوّر ما حدث، بالطبع ليس سمعي مرهفاً ولكنني أعتقد أنني سمعت الصبي يردد بوضوح كلمات تشير إلى أنني... يقصد أنني قتلت زوجتي الغالية.

فقالت الآنسة ماربل وهي تقطف بعض الأوراق الذابلة من الوردة التي تمسكها: لا شك في أن هذا كان هو المعنى الذي يقصده.

- ولكن مَن الذي وضع مثل هذه الفكرة في رأس الصبي؟

- إنه يستمع إلى آراء الكبار...

- أتقصدين أن هذا هو رأي الناس؟

- هذا هو رأي نصف سكّان سانت ماري ميد.

- ولكن يا سيدتي العزيزة، ما الذي جعلهم يعتنقون هذا الرأي؟ لقد كنت متعلّقاً بزوجتي، وللأسف لم تكُن هي تميل إلى حياة الريف بالقدر الذي كنت أتوقّعه، ولكن اتّفاق الزوجين في الأمور كلّها ضرب من المستحيل، ومع هذا فأنا أؤكّد لك أنني أشعر بخسارة فادحة.

- من الجائز، ولكن اسمح لي أن أخبرك بأنك لست حزيناً كما تقول.

فوقف السيد سبنلو وهو يحاول أن يرفع قامته قائلاً بحرارة: يا سيدتي العزيزة، لقد قرأت منذ سنوات بعيدة أن أحد الفلاسفة

الصينيين عندما ماتت زوجته استمر يقرع الجرس في الشوارع بهدوء، وهي عادة صينية، وأعتقد أن أهل المدينة تأثّروا أشد التأثّر بصبره.

- ولكن أهل سانت ماري ميد ينظرون إلى الأمر بطريقة مختلفة، والفلسفة الصينية لا تستهويهم.

- ولكنك تقدّرين موقفي.

فهزّت الآنسة ماربل رأسها موافِقة ثم استطردت قائلة: كان عمّي هنري رجلاً يتميّز بالقدرة الخارقة على السيطرة على أعصابه، وكان شعاره هو «لا تُظهر عواطفك أبداً»، وكان مولعاً بالزهور أيضاً.

فقال السيد سبنلو بلهجة حالمة: لقد كنت أفكّر في تجهيز مكان للزهور في الجانب الغربي من الكوخ لأضع فيه وروداً حمراء، وربما زهور الدستيريا ونوعاً آخَر من الزهور البيضاء.

فقالت الآنسة ماربل بالأسلوب الذي تخاطب به حفيداً صغيراً: أنا أحتفظ هنا بمجلّة مصوّرة للزهور، تستطيع أن تتصفّح ما فيها في الوقت الذي أذهب فيه إلى القرية.

ثم تركت الآنسة ماربل السيد سبنلو يتصفّح المجلة بسعادة، وصعدت إلى غرفتها فوضعت أحد ثيابها في لفافة من الورق ثم سارت بنشاط متّجهة نحو مكتب البريد. وكانت الآنسة بوليت الخيّاطة تقيم في منزل فوق مكتب البريد، ولكن الآنسة ماربل لم تذهب مباشرة إلى الخيّاطة؛ فقد كانت الساعة الثانية والنصف ومن المفروض أن تصل حافلة ماتش بنهام بعد دقيقة

لتقف أمام المكتب، وكان وصول تلك الحافلة من الأحداث اليومية المهمّة في القرية.

أسرعت مديرة مكتب البريد إلى الخارج ومعها طرود البريد الخاصّة بعملها؛ فقد كان مكتبها يتاجر في الحلوى والكتب الرخيصة ولعب الأطفال إلى جانب قيامه بأعمال البريد. وظلّت الآنسة ماربل وحدها في مكتب البريد لمدّة تقرب من الأربع دقائق، ولم تصعد الدرَج متّجهة إلى الخيّاطة إلا بعد وصول مديرة المكتب. وطلبت العجوز من الخيّاطة أن تُصلح لها ثوبها الرمادي القديم بحيث يصبح عصرياً، فوعدتها الآنسة بوليت بتنفيذ رغبتها.

* * *

دُهش مدير الشرطة عندما ذُكر اسم الآنسة ماربل أمامه. لقد جاءته العجوز لتعتذر عمّا إذا كانت تعطّله عن عمله، ثم أضافت قائلة: رأيت أنه من الأفضل أن أحضر إليك بدلاً من المفتّش سلاك وذلك لسبب بسيط، وهو أنني أكره أن أتسبّب في بعض المتاعب للشرطي بالك لأنني أعتقد أنه كان يجب عليه أن لا يلمس شيئاً.

فقال الضابط ميلشيت بحيرة: بالك؟ أهو الشرطي المعيّن لخدمة قرية سانت ماري ميد؟ ماذا فعل بالك؟

فقالت الآنسة ماربل بهدوء: لقد التقط دبّوساً وعلّقه بمعطفه، وأظن أنه ربما التقط هذا الدبوس من منزل السيدة سبنلو.

- نعم، وما دخل الدبوس بقضية السيدة سبنلو؟! لقد جاء وأخبر سلاك بالواقعة يوم أمس. أأنت التي طلبت منه أن يفعل ذلك؟ طبعاً كان من واجبه أن لا يلمس شيئاً في مسرح الجريمة، ولكن كما قلت: ما قيمة دبوس؟ لقد كان دبوساً عادياً من النوع تستخدمه أية سيدة.

- لا يا سيدي، أنت مخطئ. ربما كان الأمر كما تقول من وجهة نظر الرجل، ولكنه دبوس من نوع خاص، دبوس رفيع للغاية من الطراز الذي يستخدمه الخيّاطون.

فحملق ميلشيت إلى وجهها مدهوشاً وقد أدرك ما ترمي إليه، فهزّت الآنسة ماربل رأسها بضع مرّات ثم قالت: نعم، بالطبع. يبدو أن الأمر واضح للغاية. لقد كانت السيدة سبنلو ترتدي روب الحمام استعداداً لقياس الثوب الجديد، وقد توجّهت إلى الغرفة الأمامية لتستقبل الآنسة بوليت كي تجرّب عليها الثوب، ولكن الخيّاطة لفت شريط القياس حول رقبتها وعقدت طرفيه... أمر سهل للغاية! ثم خرجت بعد ذلك وأغلقت الباب خلفها وأخذت تطرق الباب وكأنها وصلت لتوّها، ولكن الدبوس يؤكّد أنها كانت في المنزل.

فقال الضابط ميلشيت: وهي التي اتّصلت هاتفياً بالسيد سبنلو، أليس كذلك؟

- بلى، من مكتب البريد في الساعة الثانية وثلاثين دقيقة بمجرّد وصول الحافلة في الوقت الذي يكون فيه المكتب خالياً.

- ولكن لماذا يا عزيزتي الآنسة ماربل؟ ما الدافع؟ لا يمكن

إثبات جريمة دون دافع.

فقالت الآنسة ماربل: حسناً يا سيدي، لقد سمعت أن تاريخ الجريمة موغِل في القدم، وهذا يذكّرني باثنين من أبناء عمومتي أنتوني وجوردون، وكان أنتوني موفّقاً في أعماله كلها في حين أن سوء الحظّ صادف جوردون، وفي رأيي أن المرأتين كانتا تعملان معاً.

فسألها ميلشيت قائلاً: في أي شيء؟

فقالت الآنسة ماربل: في سرقة الجواهر التي حدثت منذ وقت طويل، وكانت تساوي الكثير على ما سمعت، الوصيفة ومساعدتها. وتوجد نقطة كانت تحتاج إلى تبرير في وقتها، وهي كيف استطاعت الشابة المراهقة أن تحصل على المال اللازم لفتح محلّ الزهور عندما تزوّجت البستاني؟! وجواب هذا أن نصيبها من السرقة هو التبرير المعقول. وقد حالفها النجاح في عملها، والمال يأتي بالمال، ولكن الأمور مع شريكتها سارت على وجه مختلف فتدهورت حالها إلى أن أصبحت خيّاطة في الريف. ثم شاءت الظروف أن تجمع بينهما مرّة أخرى، ولم تحدث مشكلة في البداية إلى أن ظهر تيد غيرارد، وكان ضميرها قد بدأ يؤنّبها بالفعل لا سيما بعد تديّنها وانضمامها إلى جمعية دينية متحمّسة، وجاء ذلك الشاب يحثّها على مواجهة الحقيقة وتطهير نفسها. وأستطيع أن أقول بأنها كانت على وشك أن تفعل ذلك، ولكن الآنسة بوليت كانت ترى الموضوع من زاوية أخرى، كانت تريد أن لا تدخل إلى السجن بسبب جريمة مرّ زمن طويل على ارتكابها، لهذا قرّرت أن توقِف الأمور؛ فقد كانت امرأة شريرة بطبعها، ولا أعتقد أن شعرة واحدة كانت ستتحرّك في رأسها لو

أُلصقت التهمة بالسيد سبنلو الغبيّ، حتى لو شُنق.

فقال الضابط ميلشيت ببطء: نستطيع أن نتحقّق من نظريتك إلى حد ما، وهي نظرية إثبات العلاقة التي كانت قائمة بين الآنسة بوليت وأسرة أبركرومبي كوصيفة، ولكن...

وعندئذ توقّف ميلشيت عن إكمال عبارته، فقالت الآنسة ماربل: سيكون الأمر سهلاً لأن الآنسة بوليت من ذلك الطراز الذي ينهار بسرعة عندما تواجهه بالحقيقة، وكما ترى فقد انتهزت فرصة زيارتي لها وأخفيت شريط القياس في حقيبتي، وعندما تفتقده ستظن أنه وقع بين أيدي الشرطة. وهي امرأة جاهلة وستظن أن الشريط كاف لإثبات ارتكاب الجريمة.

ثم ابتسمت الآنسة ماربل ابتسامة تشجّع بها الضابط وقالت: لن تواجه أدنى صعوبة، أؤكّد لك ذلك.

كانت تتحدّث باللهجة نفسها التي كانت تحدّثه بها عمّته عندما كان يستعدّ لأداء الامتحان في كلية ساند هيرست، وقد اجتاز الامتحان بنجاح.

* * *

قضيّة الحارس

سأل الدكتور هايدوك مريضته التي ترقد على السرير قائلاً: حسناً، كيف حالك اليوم؟

فأجابته الآنسة ماربل بضعف قائلة: أعتقد أنني أحسن، ولكنني أشعر بالاكتئاب الشديد، في داخلي شعور بأنه كان من الأفضل لي أن أموت؛ فأنا امرأة عجوز لا يريدها أحد أو يهتمّ بها إنسان.

فقال الدكتور هايدوك بطريقته الخشنة في الحديث: هذا ردّ فعل طبيعي بعد هذا النوع من الأنفلونزا. ما تحتاجين إليه الآن هو بعض الترويح الذهنيّ.

فهزّت الآنسة ماربل رأسها، فاستطرد الطبيب قائلاً: والأحسن من هذا أنني أحضرت الدواء معي.

ثم ألقى بظرف على السرير وهو يقول: الشيء المناسب لك هو اللغز الذي يثير شهيّتك.

فقالت الآنسة ماربل باهتمام: لغز؟!

- حاولت أن أصيغ القصة بأسلوبي ولكنها قصّة واقعية.

فسألته الآنسة ماربل قائلة: ولكن لماذا تسمّيها باللغز؟

- لأن التفسير متروك لك، وأريد أن أرى ما إذا كنت لا تزالين تتمتّعين بذكائك المعهود أم لا.

ثم غادر الطبيب الغرفة بعد أن فجّر قنبلته، فالتقطت الآنسة ماربل الظرف وبدأت تقرأ.

❊ ❊ ❊

سألت الآنسة هارمون برقّة قائلة: ولكن أين العروس؟

كانت القرية قد تجمّعت لتشاهد العروس الشابة الثريّة الحسناء، الزوجة التي أتى بها هاري لاكستون من الخارج. وقد سرى بين الجميع شعور عام بالتسامح تجاه هاري، الفتى الذي عُرف بالشرير في حداثته ثم حالفه الحظّ.

ودائماً كان الجميع يشعر بالتسامح مع هاري، حتى أصحاب الحوانيت التي طالما حطّم هاري زجاجها بنباله، كانت ثائرتهم تهدأ عندما يرون الصبي يُظهر الندم على ما فعل. كم حطّم من نوافذ وسرق الفاكهة وخنق الأرانب! ثم في وقت لاحق غرق في الديون إلى أذنيه، ثم أغوى ابنة بائع التبغ وعندما حاول التملّص من هذه العلاقة أرسله والده إلى إفريقيا.

وفي ذلك الوقت همست العوانس في القرية قائلات: لقد ابتعد الشرّ، لا شكّ في أنه سيستقر هناك.

والآن ها هو الفتى الضالّ يعود ظافراً؛ فقد عمل بجد ونشاط حتى استطاع أن يقف على قدميه، وفي النهاية التقى بشابة ثرية حسناء من أب إنكليزي وأم فرنسية تمتلك ثروة طائلة، ثم أصبحت زوجة له. كان باستطاعة هاري أن يعيش في لندن أو يشتري ضيعة في الريف حيث الصيد واللهو، ولكنه آثر أن يعود إلى مسقط رأسه ويشتري القصر المهجور بحدائقه الشاسعة حيث نشأ في طفولته.

كان قصر كنجزدين غير مأهول ما يقرب من السبعين عاماً وقد بدأت جدرانه تتهدّم، وفي ركن من القصر كان يعيش حارس عجوز مع زوجته، وكانت الحدائق قد أصبحت موحشة وفي حال يُرثى لها. وقد انتهز الميجور لاكستون والد هاري الفرصة واستأجر القصر لمدّة طويلة بإيجار زهيد، وعندما كان هاري طفلاً جلس في أركان القصر كلها والغابة المحيطة به حتى عرف كل شبر من الأرض، وكان الصبي مفتوناً بذلك المكان.

ومات الميجور لاكستون منذ بضع سنوات، لهذا فقد ظنّ بعضهم أنه لم تعُد توجد رابطة تربط هاري بالمكان، إلا أن هاري عاد مع عروسته إلى المنزل الذي نشأ فيه، وسرعان ما بدأ المقاولون في هدم القصر. وفي أشهر قليلة أُقيم منزل حديث مطليّ باللون الأبيض فوق أنقاض القصر القديم يقف مزهواً شامخاً بين الأشجار.

ثم أرسل بعض البستانيين للعناية بالحدائق، ثم وصلت مجموعة من العربات تحمل الأثاث الجديد، كما أرسلت السيدة برايس التي تمتلك أكبر منزل في القرية الدعوات إلى أهل القرية كلهم تدعوهم إلى حفل الاستقبال الذي تقيمه للعروسين.

لقد كان ذلك حدثاً عظيماً في تاريخ القرية أعدّت له النساء ملابس جديدة. وكان الفضول والرغبة الشديدة في رؤية العروس الأسطورية يدفع الجميع، وكان الناس كلهم يذكرون أنها قصّة من القصص الخيالية.

وشقّت الآنسة هارمون طريقها بين الجموع، وهي عانس نحيلة، لتسأل الآنسة برينت العانس التي تعرف أخبار القرية كلها، فوجدت الأخيرة الفرصة سانحة كي تستعرض معلوماتها

فقالت: آه يا عزيزتي، العروس ساحرة ذات طباع حميدة، وهي شابة صغيرة، صغيرة جداً، تدفعك إلى الإحساس بالغيرة وأنت تنظرين إلى فتاة تملك الصفات كلها من المنظر الحسن والثراء وعراقة الأصل، كما أن هاري محبوب للغاية.

فقالت الآنسة هارمون: أجل، وهما لا يزالان في البداية.

فاهتزّت الآنسة برينت تأييداً لما تسمعه ثم قالت: آه يا عزيزتي، هل تعتقدين ذلك حقاً؟

- كلنا يعلم طبيعة ذلك الشاب.

- نحن نعلم كيف كانت طباعه، ولكنني أتوقّع أن...

- آه، الرجال لا يتغيّرون، والذي يخادع مرّة يظلّ مخادعاً طوال العمر، أنا أعرف الرجال.

قالت الآنسة برينت وهي أكثر سعادة: نعم، أتوقّع أن تصادف العروس بعض المتاعب معه، ويجب أن يحذّرها أحد. هل سمعَت شيئاً عن ماضيه؟

- ليس من العدل أن تجهل كل شيء لا سيما وأنه لا توجد سوى صيدلية واحدة في القرية، وقد أصبحت ابنة بائع التبغ زوجة السيد أيدغ الصيدلي.

فقالت الآنسة برينت: ربما كان من الأفضل للعروس أن تتعامل مع الصيدلية الموجودة في قرية ماتش بنهام.

وقالت الآنسة هارمون معقّبة على ذلك: أعتقد أن هاري لاكستون سيقترح عليها ذلك بنفسه.

ومرة أخرى تبادلت المرأتان النظرات ثم قالت الآنسة هارمون: ولكنني لا أظن أنه لا بدّ للعروس من أن تعرف.

❊ ❊ ❊

قالت غلاريس فين لعمّها الدكتور هايدوك بمرارة: وحوش، بعض الناس مجرّد وحوش.

فنظر إليها الطبيب بفضول. وكانت غلاريس فتاة طويلة جميلة مرحة ذات عينين واسعتين، وكان الضيق يظهر عليها في تلك اللحظة، ثم أضافت قائلة: كل تلك القطط العجائز ليس وراءهن سوى الثرثرة والخوض في سِير الآخرين.

- هل تعنين هاري لاكستون؟

- نعم، أعني قصّته مع ابنة بائع التبغ.

فهزّ الطبيب كتفيه وهو يقول: نعم، تلك القصة!

- إن الماضي ينتهي، فلماذا ننبشه لنعيد إليه الحياة بعد كل هذه السنوات؟! النساء كالغيلان عندما ينهشن جثث الموتى.

- أستطيع أن أقول بأن الأمر يظهر لك على هذا الوجه، ولكن بالنسبة إليهن فليس لديهن حديث يخضن فيه ومن ثَم يعشنَ على فضائح الماضي. ولكن الأمر الذي يثير فضولي هو: ما الذي يثيرك إلى هذا الحدّ؟

فعضّت غلاريس فين على شفتيها واحمرّ وجهها ثم قالت بصوت مبحوح: يبدو أن العروسين في قمّة سعادتهما لأنهما شابان متحابان وكل شيء من حولهما بديع، وأنا أكره أن يفسد الوحوش هذه السعادة بالهمسات والغمز.

- آه، فهمت.

ثم استطردت غلاريس حديثها قائلة: لقد كان هاري يتحدّث معي منذ قليل، وهو سعيد لأنه استطاع أن يحقّق حلمه ويعيد بناء قصر كنجزدين، هو فرحان كالطفل، وهي... حسناً. أعتقد أنها لم تصادف أية متاعب في حياتها؛ فقد كانت تحصل على كل شيء. لقد رأيتها بنفسك، فما رأيك فيها؟

لم يجبها الطبيب مباشرة، فقد تكون لويز لاكستون موضع حسد بعضهم لمجرّد أنها فتاة مدلّلة وُلدت وفي فمها ملعقة من ذهب، أما بالنسبة إليه فقد أعادت إلى ذاكرته لحناً قديماً سمعه منذ زمن بعيد، أغنية «يا لتعاسة الشابة الحسناء الثرية».

❊ ❊ ❊

كانت لويز شابة ذات قوام دقيق وشعر مجعد وعينين زرقاوين حزينتين، وكانت تشعر بالضعف في تلك اللحظة وتتمنّى أن ينتهي هذا الحفل الذي سمعت فيه الكثير من التهاني حتى ملّت، وكانت تأمل في أن يكون الوقت قد حان للانصراف وتتوقّع من هاري أن يعرض عليها ذلك؛ فقد نظرت إليه بطرف عينها لترى زوجها الشاب بقامته الطويلة وكتفيه العريضتين والفرحة الغامرة التي تنعكس على وجهه في ذلك الحفل المكروه. يا لتعاسة الشابة الحسناء الثرية!

وكانت تتنهّد بارتياح، فالتفت هاري نحو عروسه بمرح وهما يبتعدان عن مكان الحفل، فقالت: يا له من حفل مفزع!

فضحك هاري وأجابها قائلاً: أجل، مفزع للغاية يا حبيبتي، ولكن كان لا بدّ لنا من حضوره، فأنت تعلمين أن

كل تلك القطط العجائز يعرفنني منذ طفولتي وكان يزعجهن أن لا يرينك عن قرب.

فقطبت لويز جبينها وهي تقول: هل من الواجب أن نلتقي بهم كثيراً في المستقبل؟

- ماذا تقولين؟! لا، بل سيأتين حاملات بطاقات الدعوة في مختلف المناسبات، وما عليك إلا أن تعتذري كي لا يأتين مرّة أخرى، كما أنك تستطيعين أن تختاري أصدقاءك بنفسك سواء في هذه القرية أو في غيرها.

فقالت لويز بعد مدّة قصيرة: ألا يعيش في هذا المكان قوم مسلّون؟

- بلى، توجد أُسرة كلونتي بالرغم من أنك قد تجدينهم كئيبين بعض الشيء. معظم هواياتهم تنحصر في الكلاب والجياد. ستركبين الخيل وستجدين في ذلك متعة بالطبع، كما يوجد جواد في إيغلنتون وأحب أن تشاهديه، فهو حيوان جميل ومدرّب خير تدريب ممتلئ بالحيوية لا عيب فيه.

* * *

أبطأت السيارة وهي تستدير تجاه قصر كنجزدين، وضغط هاري على الفرامل دفعة واحدة كي يتجنّب الاصطدام بشبح ضخم قفز أمام السيارة فجأة، وقد تجنب الاصطدام بصعوبة في حين وقف الشبح الضخم يلوّح بقبضته وراء السيارة التي انطلقت مبتعدة عن المكان، وتمسّكت لويز بذراعه وسألته قائلة: مَن تلك المرأة العجوز المريعة؟

فقال هاري: تلك هي العجوز مورغاتويد، كانت هي

وزوجها يقومان بأعمال الحراسة في القصر القديم وكانا يقيمان في القصر لمدة تقرب من الثلاثين عاماً.

- ولماذا تلوّح لك بقبضتها متوعّدة؟

احمرّ وجه هاري وقال: إنها... حسناً، لقد كانت تعارض فكرة هدم القصر، ثم بدأ عقلها يختلّ؛ فقد مات زوجها منذ عامين ويُقال إنها بدأت تفقد صوابها منذ ذلك الحين.

- هل تعاني من الفقر؟

فثارت ثائرة هاري وقال بانفعال: يا إلهي! كيف تفكّرين هكذا يا عزيزتي؟ لقد استأجرت لها مسكناً، وهو مسكن لائق أيضاً. لقد عثرت لها على مسكن ودبّرت لها كل شيء.

فسألته بحيرة قائلة: وما الذي يثيرها إذن؟!

- لا أعرف. قد يكون الجنون؛ فهي مولعة بالقصر.

- ولكنه كان متهدّماً، أليس كذلك؟

- بالطبع، كان قد تحوّل إلى أنقاض، ولكن يبدو أنه كان يعني شيئاً بالنسبة إليها فقد عاشت فيه زمناً طويلاً. أعتقد أن العجوز قد جُنت.

فأجابته بعدم ارتياح قائلة: تلك العجوز تلعننا يا هاري، وكم كنت أودّ لو أنها لم تفعل ذلك!

وخُيل إلى لويز أن المنزل الجديد قد دبّ فيه الفساد وتسمّم بذلك الشبح الشرير للمرأة العجوز. كان ذلك الشبح الكئيب ينتظرها أينما ذهبت، سواء وهي تركب السيارة أو الجواد أو

عندما تخرج مع كلابها للنزهة. لقد كانت العجوز في انتظارها وهي مكوّرة على نفسها، وما تكاد تراها حتى تصبّ عليها اللعنات. ثم بدأت لويز تقتنع بوجهة نظر هاري، وهي أن العجوز مجنونة لا شك، ومع ذلك لم تشعر بالراحة رغم أن العجوز لم تكُن تدخل إلى المنزل بل كانت تقف أمام البوابة، كما أنها لم تكُن تهدّد بشيء محدّد أو تستخدم العنف.

ولم يكُن الالتجاء إلى الشرطة مُجدياً؛ فقد كان هاري يرى أن ذلك الإجراء سيُكسِب العجوز عطف الجميع، وأخذ الأمر ببساطة أكثر من لويز وقال لها: لا تنزعجي يا عزيزتي، ستتعب العجوز وتهدأ.

- لا يا هاري، تلك العجوز تكرهنا وتتمنى لنا سوء المصير، أنا أشعر بذلك.

- تلك العجوز ليست ساحرة يا عزيزتي، بالرغم من أن شكلها يوحي بذلك. فلا تدعيها تتلف أعصابك.

فالتزمت لويز الصمت. وبعد أن انتهت أولى المسائل التي تثير الأعصاب في أعقاب إقامتها في المنزل الجديد بدأت تشعر بالوحدة؛ فقد اعتادت على الحياة في لندن والريفيرا ولم تكُن تعلم شيئاً عن حياة الريف الإنكليزي، كانت تجهل تنسيق الحدائق، وفي الواقع أنها لم تكُن مهتمّة بالكلاب وتشعر بالملل من جيرانها. وكانت تستمتع بركوب الخيل أكثر من أي شيء آخَر، سواء مع هاري أو وحدها عندما يكون زوجها مشغولاً، فتركب جوادها الجميل الذي اشتراه لها زوجها وتنطلق به بخطى هادئة، وبالرغم من هدوء الجواد إلا أنه كان يفزع وتثور ثائرته في كل مرّة تطالعه العجوز المتوعّدة بالشر.

وفي يوم ما وجدت لويز في نفسها شيئاً من الشجاعة وهي ترى السيدة مورغاترويد فوقفت أمامها وسألتها قائلة: ما الذي يضايقك؟ ماذا تريدين...؟

فطرفت العجوز بعينها وحملقت إليها بوجهها الكالح وشعرها الرماديّ غير المرجّل، فخُيل إلى لويز أن العجوز ليست في وعيها، ثم قالت العجوز بصوت كريه: أتسألين ماذا أريد حقاً؟ أريد ذلك الذي أخذوه منّي. لقد طردني من القصر وقد عشت فيه صبية وامرأة أربعين عاماً، وكان إخراجي من القصر عملاً أسود، وكذلك الحظّ الأسود الذي ينتظره وينتظرك.

فردّت لويز قائلة: لقد أعطاك كوخاً!

وتوقّفت لويز عن الكلام وهي ترى العجوز تصرخ في وجهها قائلة بحدّة: وبماذا يفيدني الكوخ؟ أريد المكان الذي عشت فيه طول عمري. أما بالنسبة إليك وإليه فأنا أقولها لك: لن تعرفا السعادة في المنزل الجديد بسبب الأحزان السوداء والأسى والموت واللعنات التي أصبها على رأسيكما.

فانصرفت لويز متوتّرة الأعصاب وهي تفكّر في مغادرة المكان بأسره، وقالت لزوجها: لا بدّ أن نبيع المنزل، لا بدّ أن نترك هذا المكان.

كانت الفكرة سهلة بالنسبة إليها، ولكن زوجها قال بإصرار: نترك المكان؟ نبيع المنزل لمجرّد أن عجوزاً مجنونة تصبّ علينا لعناتها؟! لا شك في أنك جُننت.

- لا، أنا لم أُجنّ، ولكنها تخيفني وأشعر بأن شيئاً كريهاً سيحدث.

فقال هاري بانفعال: اتركي لي أمر السيدة مورغاترويد وسأسوّي الحساب معها.

* * *

نشأت علاقة صداقة بين غلاريس فين والسيدة لاكستون الشابة، فقد كان عمرهما متقارباً بالرغم من اختلاف طبائعهما وأذواقهما، وقد وجدت لويز بعض الراحة في صحبة غلاريس؛ فقد كانت الصديقة الجديدة ذات ثقة شديدة بنفسها. وعرضت عليها لويز مشكلة العجوز ولعناتها، وكان من رأي غلاريس أن الموضوع يثير الضيق أكثر من إثارة الفزع، فقالت لويز بمرارة: أنت تعلمين أنني أشعر بالرعب يا غلاريس، وفي بعض الأحيان يدقّ قلبي دقّات عنيفة.

- هذا هراء، يجب أن لا تسمحي لأمر تافه كهذا أن يسبّب لك الضيق، وسوف تتعب العجوز وتهدأ.

وصمتت لويز بُرهة ثم قالت باندفاع: أنا أكره المكان، أكره بقائي هنا، أكره الغابات والبيت والصمت المخيف في أثناء الليل وأصوات البوم. آه، كما أكره الناس وكل شيء هنا!

- الناس؟! أي ناس؟

- أهل القرية، أولئك الثرثارات من عوانس القرية.

فقالت غلاريس بحدّة: في أي حديث كُنّ يخضن؟

- لا أعلم على وجه التحديد، ولكن عقولهنّ شريرة، فعندما تتحدثين إليهن تدركين أنك لا تستطيعين أن تثقي بمخلوقة واحدة على الإطلاق.

ردّت غلاريس بخشونة قائلة: لا تكترثي بهنّ فهنّ لا يشغلهن سوى ما قيل وما يقال، والقصص التي يروينها مختلفة.

- كم تمنّيت لو لم آتِ إلى هنا قطّ، ولكن هاري مفتون بالمكان.

فهمست غلاريس لنفسها قائلة: كم تحب هاري! ثم قالت بصوت مسموع: يجب أن أنصرف الآن.

- سأُعيدك إلى منزلك بسيارتي، وأرجو أن أراك قريباً.

فهزّت غلاريس رأسها مؤمّنة. وشعرت لويز بالراحة لزيارة صديقتها الجديدة، كما فرح هاري عندما رأى زوجته مبتهجة، ومنذ تلك اللحظة وهو يحثّ زوجته على دعوة غلاريس بين الحين والآخَر. وفي يوم ما قال لزوجته: لدي أخبار طيّبة يا عزيزتي.

- أية أخبار؟

- لقد قمت بحلّ مشكلة مورغاترويد، إن لها ابناً يعيش في أمريكا وقد رتّبت الأمور بحيث تذهب لتعيش معه، وسأدفع لها ثمن التذكرة.

- آه، هذا عظيم يا عزيزي. أعتقد أنني سأحبّ المكان بعد ما حدث.

- يجب أن تحبيه؛ فهو أجمل مكان في العالم.

وشعرت لويز برهبة؛ فلم يكُن من السهل عليها أن تتخلّص من وساوسها بهذه السهولة.

* * *

إذا كان الأمل قد راود العوانس في سانت ماري ميد، وذلك بإخطار الزوجة بماضي حياة زوجها، فإن هاري قد أفسد عليهنّ تلك المتعة بالتصرّف العاجل الذي أقدم عليه.

ذهبت الآنسة هارمون وغلاريس فين معاً إلى صيدلية السيد إيدغ، الأولى لكي تشتري دواء لقتل الحشرات والأخرى لتشتري حمض البوريك. وبعد قليل وصل إلى الصيدلية هاري لاكستون وزوجته، وبعد أن تبادل هاري التحية مع السيدتين طلب من الصيدلي فرشاة أسنان، وفجأة توقّف عن الحديث معه قائلاً بمرح: حسناً، مَن أرى؟ يا إلهي! بيللا؟

وكانت السيدة إيدغ قد أسرعت نحوهم وعلى وجهها ابتسامة عريضة تكشف عن أسنانها الكبيرة البيضاء. كانت فتاة جميلة وقد ظلت محتفظة بقدر معقول من جمال شبابها بعد زواجها، وبالرغم من أنها اكتسبت بعض الوزن إلا أن عينيها كانتا مملوءتين بالحيوية عندما قالت: السيد هاري؟! كم أنا سعيدة لرؤيتك بعد هذه السنين!

فالتفت هاري نحو زوجته قائلاً: بيللا صديقة من العهد القديم، وقد كنت غارقاً في حبها، أليس كذلك يا بيللا؟

فأجابته السيدة إيدغ قائلة: هذا ما تقوله بلسانك.

فضحكت لويز قائلة: زوجي يشعر بمنتهى السعادة عندما يلتقي بأصدقائه القدامى مرّة أخرى.

فردّت السيدة إيدغ قائلة: آه، لم ننسك يا سيد هاري، كأنها قصّة من قصص الخيال أن نراك متزوجاً وأن تبني بيتاً جديداً بدلاً من قصر كنجزدين الخرِب!

فقال هاري ضاحكاً: أراك بصحّة جيدة ومشرقة الوجه.

فضحكت السيدة إيدغ وهي تؤكّد أنها بخير وصحّة، ثم سألته عن نوع فرشاة الأسنان التي يريدها. وكانت غلاريس تتابع الانفعالات التي على وجه الآنسة هارمون بأنفاس مبهورة وقالت لنفسها بسرور: حسناً فعلت يا هاري! لقد دمّرت مدافعهنّ.

* * *

قال الدكتور هايدوك لابنة أخيه بفظاظة: ما هذا العبث الذي أسمعه عن السيدة مورغاترويد العجوز؟ أصحيح أنها تحوم حول منزل كنجزدين ملوّحة بقبضتها تصبّ اللعنات على القصر الجديد؟!

- نعم، وهذا مجرّد هراء، وقد سبّب ذلك إلى إصابة لويز بالضيق.

- أخبريها بأنه لا داعي للقلق، فعندما كان السيد مورغاترويد وزوجته يعملان حرّاساً للقصر لم يكُن باستطاعته أن يحصل على عمل آخَر.

فأجابته غلاريس بارتياب قائلة: سأخبرها ولكنني لا أظنها ستصدقك؛ فالعجوز تقابلها بالصراخ والحقد.

- لقد كانت مولعة بهاري وهو صبي، أنا لا أفهم!

- حسناً، سيتخلّصون منها عاجلاً. سيدفع هاري ثمن تذكرة السفر إلى أمريكا.

* * *

بعد ثلاثة أيام سقطت لويز من فوق جوادها ودُقّت عنقها، وشاهد الحادثَ اثنان من عمّال المخبز كانا يركبان العربة، فقد شاهدا لويز تركب جوادها وتخرج من بوابة المنزل، ثم شاهدا العجوز تقفز أمامها وهي تلوّح بقبضتها وتصرخ في وجهها ففزع الجواد وانطلق بسرعة جنونية، ثم سقطت لويز لاكستون على الأرض فأسرع أحد الرجلين نحو الزوجة التي غابت عن الوعي وهو لا يدري كيف يتصرّف! في حين توجّه الآخَر إلى المنزل طلباً للمساعدة.

وخرج هاري من المنزل شاحب الوجه، ثم خلعوا أحد أبواب العربة وحملوها عليه إلى المنزل، ولكنها لفظت أنفاسها وهي ما تزال غائبة عن الوعي قبل أن يصل الطبيب.

* * *

عندما عاد الطبيب في اليوم التالي أسعده أن يرى الآنسة ماربل بوجهها الأحمر فقال: حسناً، ما حُكمك؟

- ما المشكلة يا دكتور هايدوك؟

- آه يا سيدتي العزيزة، أأنا الذي يخبرك بالمشكلة؟

فأجابته الآنسة ماربل بهدوء قائلة: أعتقد أنه السلوك الشاذ الذي كانت تسلكه الحارسة العجوز. لماذا كانت تتصرّف بتلك الطريقة الغريبة؟ صحيح أن الناس ينزعجون عندما يُطرَدون من بيوتهم القديمة ولكنه لم يكُن بيتها، وفي واقع الأمر أنها كانت تتململ وتشكو دائماً من إقامتها في القصر. يبدو أن الأمر مريب حقاً. ماذا حدث لها بعد مصرع الزوجة الشابة؟

– سافرت إلى ليفربول؛ فقد أفزعها الحادث وأرادت البقاء هناك إلى أن يحين موعد وصول باخرتها.

– هذا يريح الجميع. نعم، أعتقد أن مشكلة سلوك الحارسة يمكن حلّها بسهولة. الرشوة، أليس كذلك؟

– أهذا هو الحل الذي ترينه؟

– حسناً، إذا لم يكُن أمراً طبيعياً أن تتصرّف على هذا النحو فلا بدّ أنها كانت تقوم بتمثيل دور ما، وهذا يعني أن شخصاً كان يدفع لها الثمن.

– وهل تعرفين مَن يكون ذلك الشخص؟

– نعم، أعتقد ذلك. وأخشى أن يكون السبب هو المال أيضاً؛ فقد لاحظت أن ذلك السيد يميل إلى مثل هذا اللون دائماً.

– أنا لا أكاد أصدّق!

– لا، لا، الأمور كلها تترابط. لقد أُعجب هاري لاكستون ببيللا إيدغ مثلما أُعجب بابنة أخيك غلاريس في الوقت نفسه، ولكن الزوجة الشابة التعسة كانت من طراز آخَر، إذن فلا بدّ أن يكون زواجه بها سعياً وراء المال، وقد قتلها بسبب المال أيضاً.

– أراك تستخدمين كلمة «القتل».

– حسناً، يبدو أنه من ذلك الطراز؛ فهو جذّاب في نظر الفتيات ومستهتر إلى حد كبير، وأعتقد أنه كان يسعى إلى الاحتفاظ بمال زوجته ليتزوج بابنة أخيك. قد يكون بعضهم

شاهده يتحدّث إلى السيدة إيدغ ولكنني لا أعتقد أنه ما زال متعلّقاً بها بالرغم من أنني أتخيّله قد أوهم المرأة بذلك لغرض في نفسه، وبذلك استطاع أن يضعها تحت سيطرته.

- كيف ارتكب جريمته في رأيك؟

- كان التوقيت محكَماً؛ عربة الخبّاز مُعدّة والعمّال مستعدّون لأداء الشهادة، وكان باستطاعتهم مشاهدة العجوز وطبعاً سيعتقدون أن جموح الجواد هو السبب في الحادث، ورأيي الشخصي أن القتل كان ببندقية هواء أو ربما بنبل؛ فقد كان يجيد استخدام النبال. وفي اللحظة التي خرج فيها الجواد من البوابة فزع وقذف بالسيدة لاكستون على الأرض.

وصمتت الآنسة ماربل بُرهة مقطبة ثم قالت: ربما كانت الوقعة كافية لأن تقضي عليها، ولكنه لا يستطيع أن يتأكّد من ذلك، ويبدو أنه من الأشخاص الذي يُحْكمون تدبير خُططهم ولا يتركون شيئاً للمصادفات. كما تستطيع السيدة إيدغ أن تزوّده بالشيء المناسب دون علم زوجها، وإلا فلماذا يشغل نفسه بها؟ نعم، أعتقد أنه حصل منها على دواء قويّ المفعول يمكن استخدامه قبل وصولك، وبعد ذلك إذا سقطت امرأة من فوق ظهر الجواد وأُصيبت بجروح خطيرة أفقدتها الوعي دون أن تفيق منها فلن يرتاب الطبيب في سبب الوفاة، أليس كذلك؟

فهزّ الطبيب رأسه مؤمّناً، فسألته الآنسة ماربل بقولها: لماذا ارتبت في الأمر؟

- لم يكُن ذلك بسبب أي ذكاء من جانبي، ولكنه مجرّد الابتذال. توجد حقيقة معروفة عن المجرمين وهي أن يكون

المجرم شديد الاعتزاز بذكائه إلى درجة تدفعه إلى إغفال الحيطة. لقد كنت في زيارته بعد وفاة زوجته للتعزية، وحاول تمثيل دور الزوج الذي هدّت الصدمة قواه فألقى بنفسه على الأريكة بحركة تمثيلية فسقطت من جيبه محقنة للحقن تحت الجلد، فاختطفها بسرعة وقد بدأ الذعر يظهر على وجهه بوضوح. ولم يكُن هاري يتناول الأدوية فقد كانت صحّته جيدة، فما الذي كان يفعله بالمحقنة؟ ثم أجريت تشريحاً للجثة للتحقّق من بعض الاحتمالات فاكتشفت وجود مادة الأستروفانتين، وكان استنتاج الباقي سهلاً؛ فقد عثرنا على الأستروفانتين مع هاري، وعندما استدعى رجال الشرطة بيللا إيدغ لاستجوابها انهارت واعترفت بأنها هي التي زوّدته بالمادة السامة، ثم اعترفت السيدة مورغاتويد بأن هاري هو الذي كلّفها بدور العجوز التي تصبّ اللعنات.

- وماذا بشأن ابنة أخيك؟

- كانت معجبة بالفتى، ولكن الأمور لم تقطع شوطاً كبيراً.

ثم التقط الطبيب مخطوطته وهو يقول: عشرة على عشرة يا آنسة ماربل، والدرجة النهائية لي من أجل الوصفة التي كتبتها لك، أنت بصحة جيدة الآن.

* * *

قضية الوصيفة الكاملة

- هل تسمحين لي يا سيدتي؟ هل أستطيع أن أتحدّث إليك؟

ربما كان هذا الطلب غريباً في طبيعته؛ إذ إن أدنا هي خادمة الآنسة ماربل، وكانت توجّه السؤال لمخدومتها في تلك اللحظة، فأجابتها الآنسة ماربل مباشرة قائلة: بالتأكيد يا أدنا، ادخلي وأغلقي الباب.

تقدّمت داخل الغرفة وبلعت لعابها مرّة أو مرتين، فقالت الآنسة ماربل مشجّعة: ماذا وراءك يا أدنا؟

- آه يا سيدتي، الأمر يتعلّق بابنة عمي غلادس.

- أرجو أن لا تكون قد وقعت في مأزق.

وكانت الآنسة ماربل تتوقّع حدوث الأسوأ، ولكن أدنا أسرعت تطمئنها قائلة: لا يا سيدتي، لا شيء من هذا القبيل، ولكنها تشعر بالانزعاج فقد فقدت وظيفتها.

- يؤسفني أن أسمع هذا النبأ! ألم تكُن تعمل في منزل أولدهول عند الآنستين سكينر؟

- بلى يا سيدتي، هذا صحيح، ولكن غلادس تشعر بالانزعاج الشديد وهي في أشدّ حالات الضيق حقاً.

- لقد سبق لغلادس أن غيّرت عملها أكثر من مرّة في المدة

الأخيرة! ألم تفعل ذلك؟

- بلى يا سيدتي؛ لقد كانت تسعى إلى التغيير دائماً. وهذه هي طباع غلادس؛ فهي لا تشعر بالاستقرار في أي مكان. أرجو أن تكوني قد فهمت ما أعنيه، وقد كانت هي الطرف الذي يطلب إنهاء العقد.

فسألتها الآنسة ماربل بجفاف قائلة: والذي حدث أن الطرف الآخَر هو الذي استغنى عنها هذه المرّة، أليس كذلك؟

- بلى يا سيدتي، وقد تسبّب ذلك في تكدير غلادس بدرجة فظيعة.

وبدأت الدهشة تظهر على وجه الآنسة ماربل؛ فالذي تذكره عن غلادس عندما كانت تأتي لزيارة أدنا وتشرب الشاي معها في المطبخ أنها من الطراز القويّ الضاحك الذي لا يهتزّ أمام الأحداث بسهولة.

واسترسلت أدنا قائلة: وهكذا ترين أن الأمور قد سارت على هذا النحو يا سيدتي، أي على الوجه الذي اختارته الآنسة سكينر.

فسألتها الآنسة ماربل وهي متذرّعة بالصبر قائلة: وما وجهة نظر الآنسة سكينر؟

وفي تلك المرّة أخذت أدنا تروي القصّة بإسهاب قائلة: آه يا سيدتي، لقد كانت صدمة قاسية لغلادس. فقدَت الآنسة إميلي عقداً من جواهرها فأخذت تصخب وتنوح، وبالطبع لا أحد يحب أن يفقد شيئاً! وهو أمر محزن يا سيدتي، ولا شك في

أنك تتصوّرين الموقف، وقد ساعدت غلادس في البحث عن العقد المفقود في كل مكان، ثم قالت الآنسة لافينيا بأنها ستُخطر الشرطة، وعندئذ ظهر العقد. لقد عثروا عليه مدسوساً في إحدى الخزانات في منضدة الزينة، فشعرت غلادس بالسرور العميق.

وصمتت بُرهة لكي تلتقط أنفاسها ثم استطردت قائلة: وحدث في اليوم التالي مباشرة أن تحطّم أحد الأطباق، فلم تتردّد الآنسة لافينيا في إعطاء غلادس شهراً كإنذار لتترك العمل، فشعرت غلادس بأن المسألة ليست كَسْر طبق بل كانت الآنسة لافينيا تنتهز الفرصة لتستغني عن خدمات غلادس، والسبب الحقيقي هو العقد؛ إذ تعتقد الشقيقتان أن غلادس هي التي سرقته وأنها أعادته عندما سمعت التهديد بإبلاغ الشرطة. والذي أستطيع أن أؤكّده أن غلادس لم تسرق العقد، وهي مكتئبة لعلمها بأن الخبر سيُشاع في كل مكان وسيُسيء ذلك إلى سمعتها، وهو أمر خطير بالنسبة إلى فتاة كما تعلمين يا سيدتي.

فهزّت الآنسة ماربل رأسها موافقة. لم تكُن راضية عن رغبة غلادس في التغيير وعنادها، ومع هذا فهي واثقة من أن غلادس فتاة شريفة لا يرقى الشكّ إلى نزاهتها.

ثم قالت أدنا برجاء: أعتقد أنك تستطيعين مساعدة غلادس بوسيلة أو بأخرى.

فقالت الآنسة ماربل: قولي لها ألاّ تكون غبية. إذا لم تكُن قد أخذت العقد (وهو ما أثق به) فليس من حقها أن تتكدّر، ستجتاز الأزمة.

ثم تمتمت بتردّد قائلة: سوف أمرّ عليها بعد ظهر هذا اليوم

فلديّ كلمة أحب أن أقولها للآنستين سكينر.

- آه، شكراً لك يا سيدتي.

❊ ❊ ❊

كان أولدهول بيتاً من بيوت العهد الفكتوري تحيط به الأشجار وحظيرة لوقوف السيارات، ونظراً لأن أحداً لم يقبل استئجاره أو شراءه فقد قُسِّم إلى أربعة مساكن مع مياه ساخنة مركزية لكل قسم، وبهذا أمكن العثور على سكّان للمنزل القديم.

وقد شغلت إحدى السيدات الثريات وخادمتها واحداً من المساكن، وكانت السيدة الثرية العجوز مولّعة بتربية الطيور، كما سكن قاض هندي مُحال إلى التقاعد المسكن الثاني مع زوجته، وشغل الثالث زوجان حديثا العهد بالزواج، أما المسكن الرابع فقد تقدّمت لسكناه منذ شهرين شقيقتان باسم سكينر.

وكان المستأجرون الأربعة من ذوي الأمزجة المختلفة، ومن ثم عاش كل منهم بمعزل عن الآخَر، وكان ذلك من دواعي سعادة مالك المنزل لأنه لو كانت توجد علاقة من الصداقة بين المستأجرين لجاءه كل منهم شاكياً بين الحين وآخَر.

وكانت الآنسة ماربل قد تعرّفت على جميع السكان بالرغم من أنها لم تكُن تعرف أياً منهم معرفة جيدة. كانت الشقيقتان من أسرة سكينر وهما الآنسة إميلي والآنسة لافينيا، وهي العضو العامل في الشركة؛ إذ إن أختها الصغرى الآنسة إميلي كانت مريضة وتقضي معظم وقتها تتوجّع في سريرها من عدّة

أمراض. وكان أهل قرية سانت ماري ميد يعتقدون بأن معظم تلك الأمراض وهميّ، ولكن الآنسة لافينيا وحدها هي التي بقيت مخلصة لأختها ومضحّية من أجل أختها براحتها وصابرة على المحنة التي ألمّت بها، فكانت تقوم بالعمل كله وتسارع إلى القرية لتشتري لأختها أي لون من الطعام تشتاق إليه في كل لحظة تختارها أختها البائسة.

وكان من رأي سكان القرية أن الآنسة إميلي لو كانت فريسة نصف الأمراض التي تشكو منها لكان الوضع الطبيعي أن تلجأ إلى الدكتور هايدوك منذ زمن طويل، ولكن الآنسة إميلي عندما سمعت ذلك أغلقت عينيها وتمتمت قائلة: حالتي شديدة التعقيد، وقد حار في أمراضي كبار الأطباء في لندن.

وكان يوجد طبيب شاب اختار لها لوناً جديداً من العلاج الثوري، وهي تأمل في أن تتحسّن صحتها باتّباع برنامج العلاج الذي وضعه لها الطبيب الشاب. قالت الآنسة هارتنيل (إحدى الشخصيات الصريحة في القرية): أرى أن الآنسة إميلي كانت حكيمة في عدم استدعائها الدكتور هايدوك؛ فقد كان الطبيب العزيز هايدوك سيقول لها بلهجته الخشنة المعهودة بأنها لا تشكو من شيء وأن من الأفضل لها أن تغادر الفراش ولا تُحدِث ذلك الصخب.

على أية حال استمرت الآنسة إميلي في رقادها على الأرائك محيطة نفسها بمجموعة غريبة من علب الأدوية ورافضة كل طعام يُقدَّم إليها بالرغم من أنه طُهي بناء على رغبتها لتسأل عن لون آخَر يصعب الحصول عليه في العادة.

* * *

فتحت غلادس الباب للآنسة ماربل، وكانت الخادمة شديدة الاكتئاب إلى درجة لم تكُن الآنسة ماربل تتخيلها. وفي غرفة الجلوس (وهي ربع قاعة الاستقبال التي قُسّمت بالقواطع إلى غرفة للطعام وأخرى للجلوس وحمّام وخزانة للخادمة) نهضت الآنسة لافينيا لترحّب بالآنسة ماربل.

كانت لافينيا سكينر في نحو الخمسين من عمرها طويلة ضخمة وذات طباع خشنة، وكان صوتها خشناً أيضاً. قالت: لطيف أن نراك! إميلي راقدة في الفراش لأنها تشعر بالضعف في هذا اليوم. يا للمسكينة العزيزة! أرجو أن تتمكّن من مقابلتك، لا شك أن هذا سيُدخل السرور إلى قلبها، ولكنها تشعر بالضيق في بعض الأوقات ولا تحب أن تقابل أحداً. يا للعزيزة البائسة! إنها تصبر على أمراضها بشجاعة.

فردّت الآنسة ماربل بأدب، ثم نجحت في تحويل دفّة الحديث إلى موضوع الخدم فقالت: لقد سمعت أن الفتاة الطيبة غلادس هولمز ستترك خدمة المنزل.

فهزّت الآنسة لافينيا رأسها موافِقة ثم قالت: إنها تحطّم الأشياء كما تعلمين، ونحن لا نقبل هذا.

تنهّدت الآنسة ماربل وقالت: يجب علينا أن نقدّم الكثير من التنازلات في هذه الأيام؛ فمن الصعب العثور على خادمة تقبل أن تعمل في الريف.

فأجابتها الآنسة لافينيا قائلة: أعلم أن العثور على الخدم أمرٌ صعب في مثل هذه الأيام، ولكن ليس لدى السيدة ديفريكس خادمة مع أنها لا تعرف شيئاً عن أمور المنزل. أنا أشفق على

زوجها! وكذلك السيدة لاركين التي تركتها خادمتها، ولا يدهشني ذلك لأنها كانت ترهقها بطلباتها.

فانتهزت الآنسة ماربل الفرصة لتسألها قائلة: ألا يدفعك هذا إلى إعادة النظر في القرار الذي اتّخذتِه بشأن غلادس؟ غلادس فتاة طيبة حقاً وأنا أعرف أفراد عائلتها كلهم، وهي أمينة وممتازة.

فهزّت لافينيا رأسها بإصرار وهي تقول: لديّ مبرّراتي الخاصة.

فقالت الآنسة ماربل بصوت منخفض: سمعت أنك فقدتِ عقداً...

قاطعتها الآنسة لافينيا قائلة بحدّة: آه، مَن الذي أشاع هذه القصّة؟ أعتقد أن الفتاة هي التي أشاعت القصّة. أقول لك بكل صراحة أنا شبه واثقة من أنها هي التي أخذت العقد وعندما شعرت بالخوف من العواقب أعادته، ولكن لا يستطيع الإنسان أن يقطع في الأمر ما لم يكُن لديه الدليل.

وصمتت بُرهة ثم غيّرت دفّة الحديث قائلة: هلاّ تفضّلت بزيارة إميلي يا آنسة ماربل، أنا واثقة من أن زيارتك ستفيدها.

سارت الآنسة ماربل بوداعة خلف الآنسة لافينيا التي طرقت طرقة خفيفة على الباب، وعندما سُمح لها بالدخول أدخلت ضيفتها إلى أفضل غرف المنزل. وكانت الأضواء التي تغمر الغرفة محجوبة ببعض الستائر المسدلة قليلاً في حين كانت الآنسة إميلي راقدة على السرير، ومن الواضح أنها تستمتع بالإضاءة الخافتة والأنين من شتى الأمراض التي تشكو منها.

وقد ظهرت على الأضواء الخافتة نحيلة الجسم ونظراتها غير مستقرّة وشعرها الرمادي غير مصفّف وبعض خصلاته متباعد، وبدا المكان وكأنه عش لا يستطيع أي طائر يحترم نفسه أن يفخر به.

وكانت الغرفة معطّرة في حين كانت رائحة المعجنات والكافور تفوح في الغرفة. وبعينين نصف مغلقتين وصوت رفيع ضعيف بدأت الآنسة إميلي سكينر تقول بأن ذلك اليوم واحد من أسوأ الأيام التي مرّت بها، وقالت أيضاً: صحّتي في هذا اليوم في أدنى درجاتها، أعلم أنني عبء ثقيل على كل من حولي.

وصمتت بُرهة لتتوجّع ثم أخذت تقول باللهجة نفسها: لافينيا تُعنى بي أشدّ العناية. لافي العزيزة، أنا أكره أن أسبّب لك المتاعب، ولكن حبذا لو مُلئت قربة الماء الساخن بالطريقة التي أحبها، فهي تُملأ بأكملها بحيث تصبح ثقيلة إلى الدرجة التي لا أقوى على رفعها، ولكنها لو لم تُملأ بما فيه الكفاية فسرعان ما يبرد الماء فيها.

فقالت الآنسة لافينيا باستسلام: أنا آسفة يا عزيزتي، أعطني القربة وسأُفرغ بعض الماء منها.

- وأظن أنه لا يوجد بقسماط في المنزل. لا، لا يهم؛ فأنا أستطيع أن أستغني عن البقسماط، يكفيني كوب من الشاي الخفيف وشريحة من الليمون. ألا يوجد ليمون أيضاً؟ ولكنني لا أستطيع أن أشرب الشاي بلا ليمون. أعتقد أن طعم الحليب تغيّر قليلاً هذا الصباح.

وصمتت بُرهة كي تلتقط أنفاسها ثم استطردت قائلة: أنا

أشعر بضعف شديد، يُقال أن المحار من الأطعمة المغذية. هل باستطاعتي أن أتناول ولو قليلاً من المحار؟ لا، لا، لا داعي للمحار فسيكون من الصعب الحصول عليه في هذا الوقت المتأخّر من النهار، أنا قادرة على الصوم حتى الغد.

ثم غادرت لافينيا الغرفة وهي تتمتم بكلمات غير واضحة، ويبدو أنها كانت تقول بأنها ستركب الدرّاجة لتذهب إلى القرية.

* * *

وفي المساء أخبرت الآنسة ماربل خادمتها بأن وساطتها لم تنجح فضلاً عن أنها أزعجتها، وفضلاً عن ذلك أنها وجدت الإشاعات تملأ كل مكان في القرية بشأن عدم أمانة غلادس. والتقت بها الآنسة ويذربي في مكتب البريد فقالت لها عن غلادس: لقد أعطوها شهادة مكتوبة تقول بأنها مطيعة ويقظة ومحترمة، ولكن الشهادة لم تذكر شيئاً عن الأمانة يا عزيزتي جين، ولا شك في أن لهذا معناه الواضح. وقد سمعت أن مشكلة ثارت بشأن اختفاء عقد، وأعتقد أن لهذا دخلاً في الموضوع، وكما تعلمين أنه لا يستغني أحد عن خادمة في مثل هذه الأيام ما لم يكُن ذلك بسبب أمر خطير لأنهم سيجدون مشقّة في العثور على خادمة أخرى. والفتيات لا يقبلن الذهاب إلى أولدهول في العادة، وسترين أن آل سكينر لن يعثروا على خادمة أخرى، ومن المحتمل أن تجد تلك الأخت المريضة بالوهم نفسها مضطرة إلى أن تغادر الفراش وتفعل شيئاً.

* * *

كم كان حزن أهل القرية شديداً عندما ترامى إلى أسماعهم أن آل سكينر استخدموا وصيفة جديدة عن طريق إحدى الوكالات، وكان يمكن أن تُعَدّ تلك الوصيفة الجديدة المثال الكامل لما ينبغي أن يكون عليه الخدم بحق.

وعندما التقت الآنسة ماربل بالآنسة لافينيا في محلّ بائع السمك قالت لها الأخيرة بابتهاج: تحمل الوصيفة الجديدة شهادة توصية تفيد بأنها خدمت لمدّة ثلاث سنوات بأمانة وإخلاص، وفضلاً عن ذلك فهي تفضّل الخدمة في الريف، كما أنها ستحصل على راتب أقلّ ممّا كانت تتقاضاه غلادس. أعتقد أننا محظوظتان بحق.

فأجابتها الآنسة ماربل قائلة: حقاً؟ حسناً، يبدو أن ذلك شيء طيّب.

وبعد ذلك ساد الاعتقاد في سانت ماري ميد أن الوصيفة الجديدة ستتراجع في اللحظة الأخيرة ولن تصل إلى القرية، ولكن شيئاً من تلك الأمنيات لم يتحقّق على أية حال؛ فقد كان باستطاعة أهل القرية جميعهم أن يروا بأعينهم الوصيفة الجديدة وأن يعرفوا أن اسمها ماري هيغنز. وقد وصلت الفتاة في سيارة أجرة توقّفت أمام منزل أولدهول، وكان لا بدّ من الاعتراف بأن مظهرها طيّب وبأنها سيدة جديرة بالاحترام وترتدي ثوباً نظيفاً.

وعندما أُتيح للآنسة ماربل أن تزور أولدهول في وقت لاحق (وذلك بمناسبة اختيار حملة البساط في عيد الأبرشية) فتحت ماري هيغنز الباب لها، ودون أدنى شك كانت وصيفة

ذات نظرات مترفعة. وخمّنت الآنسة ماربل أن الوصيفة الجديدة في الأربعين من عمرها، وهي ذات شعر أسود مرجل وخدودها حمراء وترتدي صِداراً، وبصفة عامة كان مظهرها يوحي بأنها لا غبار عليها وبأنها من الطراز العتيق، كما شرحت ذلك الآنسة ماربل فيما بعد.

وكان صوتها خافتاً مهذباً مناقضاً لصوت غلادس المرتفع. وكانت الآنسة لافينيا أقلّ انزعاجاً من المعتاد، وبالرغم من أنها اعتذرت عن عدم إمكانها المشاركة في عيد الأبرشية بنفسها إلا أنها أسهمت بمبلغ ماليّ ليس بالقليل ووعدت بأن تقدّم بعض المشغولات وجوارب الأطفال، وعندما علّقت الآنسة ماربل على ارتفاع روح الآنسة لافينيا المعنوية ردّت الأخيرة قائلة: أنا مدينة بالفضل في ذلك لماري، وأنا مسرورة لأنني اتّخذت قرار التخلّص من تلك الفتاة الأخرى؛ ففي الواقع ماري كنز لا يُقدَّر بثمن، فهي تطهو الطعام ببراعة وتخدمنا في وقت الأكل بصبر وتنظف بيتنا بشكل يثير الإعجاب وتقلب حشية السرير في كل يوم، فضلاً عن أن معاملتها لإميلي ممتازة!

واستفسرت الآنسة ماربل عن صحّة إميلي فقالت الآنسة لافينيا: آه، المسكينة العزيزة! لقد كان مزاجها منحرفاً بشكل غير عادي في المدّة الأخيرة، ولا حيلة لها في ذلك بالطبع، ممّا يعقّد لنا المسائل بعض الشيء خصوصاً عندما تطلب أصنافاً معيّنة من الطعام، وما نكاد نفرغ من إعدادها ووضعها أمامها حتى تقول بأنها لا تستطيع أن تأكل الآن. وبعد نصف ساعة تطلبه مرّة أخرى عندما يكون الطعام قد تغيّر أو فنُضطر إلى إعادة طهي الطعام من جديد، ولا شك في أن هذا يضاعف عملنا، ولكن

لحُسن الحظّ أن ماري لا تتذمّر قطّ وتقول بأنها اعتادت على خدمة المرضى وتفهم طباعهم، فوجودها معنا يوفّر لنا قدراً كبيراً من الراحة.

فقالت الآنسة ماربل: أنتما محظوظتان حقاً!

- أجل، بالتأكيد. في الواقع أنا أشعر بأن ماري أُرسلت إلينا من الله استجابة لدعواتنا.

فردّت الآنسة ماربل بأن الأمر يبدو لها طيباً للغاية لدرجة أنها تتعجب من أن تكون تلك حقيقة واقعة، ثم قالت: حسناً، لو كنت في مكانك لحرصت أشدّ الحرص على أن أكون شديدة الحذر.

ولم تفطن لافينيا سكينر إلى المعنى الذي تقصده الآنسة ماربل وقالت: آه، أنا أفعل كل ما بوسعي كي أوفرّ لها الراحة، ولا أعلم ماذا أفعل لو تركتني!

قالت الآنسة ماربل بنفس بلهجتها السابقة وهي تنظر إلى وجه مضيفتها: لا أتوقّع أن تفكّر في الرحيل قبل أن تكون مستعدّة لذلك.

فقالت الآنسة لافينيا: أعباء المنزل كثيرة، لذا فوجود خادمة ممتازة من هذا الطراز يخفّف المتاعب. بالمناسبة، كيف حال خادمتك أدنا؟

- أدنا تؤدّي عملها بطريقة مُرضية. طبعاً لا أستطيع أن أقول بأنها على درجة الكفاءة التي تتميّز بها خادمتكم الجديدة، وبالرغم من هذا فأنا أعرف كل شيء عن أدنا لأنها من هنا.

وبينما كانت الآنسة ماربل تجتاز الصالة سمعت صوت المريضة يرتفع قائلة بتبرّم: لقد تُركت هذه الضّمادة حتى جفّت في حين أن الدكتور إليرتون أوصى بأن تظلّ مبلّلة على الدوام. خذيها، خذيها. والآن أريد كوباً من الشاي وبيضة مسلوقة، مسلوقة لمدّة ثلاث دقائق ونصف... تذكّري هذا جيداً، ثم اطلبي من أختي أن تأتي.

فخرجت ماري الخادمة النشيطة من غرفة الآنسة إميلي وهي تقول للافينيا: الآنسة إميلي تسأل عنك يا سيدتي.

ثم ذهبت ماري لتفتح الباب، وتقدّمت لتساعد الآنسة ماربل في ارتداء سترتها ولتقدّم لها المظلّة بأدب شديد، فأمسكت ماربل الآنسة المظلّة لكنها أسقطتها على الأرض، ثم انحنت محاولة استعادتها، وبينما هي تبذل هذه المحاولة سقطت حقيبة يدها فانفتحت وتناثر ما بداخلها.

فأسرعت ماري فجمعت الأشياء المتناثرة، وهي منديل ومفكّرة وكيس نقود جلدي عتيق وشلنان وثلاث بنسات وكتلة من حلوى النعناع. وأخذت الآنسة ماربل قطعة الحلوى بشيء من الارتباك قائلة: آه، يا إلهي! لقد كانت هذه هي قطعة الحلوى التي كان طفل السيدة كليمنت يلعقها. آه، أنا أتذكّر الآن أنه أخذ حقيبتي ليلعب بها، ولا بدّ أنه أسقط الحلوى فيها. هذه الحلوى لزجة للغاية، أليس كذلك؟

فأجابتها ماري قائلة: هل أرميها يا سيدتي؟

- هل تفعلين؟ كم أنا شاكرة لك!

كان الشيء الأخير الذي تبقّى ممّا كان في الحقيبة عبارة

عن مرآه صغيرة، وحين تناولتها من ماري قالت الآنسة ماربل بحرارة: كم أنا محظوظة لأن المرآة لم تتحطّم!

ثم توجّهت الآنسة ماربل نحو الباب في حين كانت ماري تمسك لها الباب بأدب جمّ وفي يدها قطعة الحلوى ووجهها خالٍ من أي تعبير.

❊ ❊ ❊

مرّت عشرة أيام أخرى وظلّت قرية سانت ماري ميد تسمع المزيد من أخبار الخدمات الممتازة التي تؤدّيها الوصيفة الجديدة، الكنز الذي عثرت عليه الآنستان لافينيا وإميلي سكينر، وفي اليوم الحادي عشر استيقظت القرية على نبأ مثير، وهو أن ماري، الوصيفة المثالية، اختفت!

وكان من الواضح أنها لم تنَم في سريرها؛ فلم تكُن على السرير أية علامات تشير إلى أنه استُخدم في الليلة الماضية، وكان الباب الأمامي غير مغلَق، ويبدو أنها تسلّلت في أثناء الليل بهدوء دون أن يفطن أحد إليها. لم تكُن ماري هي وحدها التي اختفت، بل اختفى عقدان وخمسة خواتم تخصّ الآنسة لافينيا، وثلاثة خواتم وسوار وأربعة عقود تخصّ إميلي.

ولم يكُن هذا هو كل شيء، بل كانت هذه بداية الكارثة التي تكشّفت بقيّة فصولها تباعاً، فقد اكتشفت السيدة ديفريكس الشابة سرقة ماساتها الثمينة التي كانت تحتفظ بها في خزانة مغلَقة، كما اختفت مجموعة من الفراء النادرة التي أُهديت إليها في مناسبة زواجها، وكذلك اكتشف القاضي وزوجته سرقة مجموعة من الجواهر وبعض المال، أما السيدة شارمايكل فقد

كانت بلواها أشد؛ إذ إن مصيبتها لم تقتصر على سرقة مجموعة ثمينة للغاية من جواهرها بل اكتشفت سرقة قدر كبير من النقود كانت تحتفظ به في المسكن أيضاً.

وكان من الواضح أن ماري، الوصيفة المثالية، كانت تحتفظ بمجموعة من المفاتيح تصلح لفتح جميع الأبواب. وساد قرية سانت ماري ميد شعور بالفرحة والشماتة، وهذا أمر لا بدّ من الاعتراف به، فقد كانت الآنسة لافينيا تفاخر بخادمتها الجديدة الممتازة في حين لم تكُن تلك الخادمة سوى لصة.

ثم بدأت بعض الحقائق المثيرة تتكشّف، فلم يعلموا أن ماري لم تختفِ إلى مكان لا يعرفه أحد فحسب بل اكتشفت وكالة التخديم التي أرسلتها مزوّدة بالشهادات أن ماري هيغنز التي انتحلت الخادمة شخصيتها تعمل في أحد القصور في مدينة كورنوول.

* * *

قال المفتش سلاك: لقد كانت لعبة ذكية وكان التدبير محكَماً!

ثم هزّ المفتش رأسه وهو يعترف بذكاء المحتالة قائلاً: لو سألتني عن رأيي لاستطعت أن أقول إن تلك المرأة تعمل مع عصابة، وقد صادفتنا قضية مشابهة في نورثمبرلاند منذ عام ولم نعثر للمسروقات على أثر، وكذلك لم يُقبض على اللص. على أية حال سنتصرّف على وجه أفضل ممّا حدث في ماتشبنهام.

لقد كان المفتّش سلاك رجلاً شديد الثقة بنفسه، ومع هذا

فقد مرّت أسابيع دون أن يعثر لماري هيغنز على أي أثر، وعبثاً حاول المفتّش سلاك أن يضاعف جهوده ليحافظ على سمعته التي اكتسبها، أما الآنسة لافينيا فلم تكُن لتكفّ عن البكاء في حين كانت الآنسة إميلي مضطربة الأعصاب منزعجة إلى الدرجة التي دفعتها إلى استدعاء الدكتور هايدوك.

وكان أهل القرية جميعهم في شوق بالغ إلى معرفة رأي الدكتور هايدوك في الأمراض التي تشكو منها الآنسة إميلي، ولكنهم لم يستطيعوا أن يسألوه بالطبع، إلا أن المعلومات التي يريدونها جاءتهم عن طريق السيد ميك مساعد الصيدلي الذي كان يسير مع كلارا خادمة السيدة برايس ريدلي، وأصبح معلوماً للجميع أن الدواء الذي كتبه الدكتور هايدوك للمريضة عبارة عن مزيج من الأسافويتيدا وفاليريان، وهو العلاج الذي يكتبه الأطباء في الجيش للمتمارضين، وذلك بناء على شرح السيد ميك.

وبعد ذلك سرعان ما علم الجميع أن الآنسة إميلي عندما لم تستسِغ الدواء الذي وصفه لها الدكتور هايدوك قرّرت، إزاء تدهور حالتها الصحيّة، أن تذهب إلى لندن لاستشارة الطبيب الذي يفهم حالتها، وبعد ذلك عرف الجميع أن مسكن الشقيقتين معروض للإيجار.

وبعد بضعة أيام توجّهت الآنسة ماربل إلى الشرطة في ماتشبنهام لتسأل عن المفتّش سلاك. وكانت الآنسة ماربل شديدة الاضطراب ووجهها شديد الحمرة، ولم يكُن المفتّش سلاك يشعر بالميل نحوها ولكنه كان يعرف جيداً أن السيد ميلشيت مدير الشرطة لا يشاركه في هذا الرأي، لذلك وافق على مقابلتها بامتعاض. وقال لها عند لقائه بها: مساء الخير يا

آنسة ماربل. هل من خدمة أستطيع أن أؤدّيها لك؟

فردّت الآنسة ماربل قائلة: أخشى أن تكون مشغولاً يا عزيزي.

- لديّ عمل كثير، ولكنني أستطيع أن أخصّص لك بضع دقائق.

فقالت الآنسة ماربل بهدوء: أرجو أن أتمكّن من عرض الموضوع بالطريقة السليمة لأنه أمر بالغ الصعوبة، وأنت تعلم أن التعبير يكون صعباً في بعض الأحيان، أليس كذلك؟ لا، ربما لم تدرِك ذلك، ولكنك تعلم أنني لم أتلقَّ التعليم بالطرائق الحديثة بل تلقّيت التعليم على يد مربّية علّمتني تاريخ ملوك إنكلترا وبعض المعلومات العامة، كما علّمني الدكتور بريدر أنه توجد ثلاثة أنواع من الآفات الزراعية للقمح ويرقان النبات و... ما هي الآفة الثالثة؟ دعني أتذكّر، ربما كان مرض الخميرة.

وكان المفتش سلاك قد بدأ يفقد صبره فقال بغضب: هل جئت كي تحدّثيني عن أمراض النباتات؟!

ثم احمرّ وجهه خجلاً عندما بادرته الآنسة ماربل بقولها: آه، لا، ولكن هذه كانت مجرّد مقدّمة للإيضاح. آه، ماذا كنت أقول؟ أقول إنني تعلّمت أيضاً كيف أعمل بالإبرة وأشياء من هذا القبيل، أشياء متفرّقة كما تعلم. لم يكُن تعليماً محدّداً يجعلك تركّز على موضوع معيّن، وهذا هو ما أريد أن أفعله الآن، فأنا أريد أن أتكلّم عن موضوع غلادس خادمة الآنسة سكينر.

فسألها المفتش سلاك قائلاً: تعنين ماري هيغنز؟

- آه، نعم، الخادمة الثانية، ولكنني أعني غلادس هولمز في الواقع. قد تكون فتاة عنيدة ومعتزّة بنفسها إلى حد بعيد ولكنها أمينة حقاً، ومن الأهمية بمكان أن يعرف الجميع هذه الحقيقة.

- على قدر ما أعلم أنه لا يوجد أيّ اتهام موجّه إليها.

- بالطبع هي ليست متّهَمة بارتكاب أي جرم، وربما كان هذا هو ما يجعل موقفها أسوأ؛ فكما تعلم أن الناس يظلّون يفكّرون ويتخيلون الأشياء. آه يا عزيزي، أراك تتململ! أعرف أنني أعبّر بطريقة سيئة، ولكن الشيء الذي أقصده هو أنه لا بدّ من العثور على ماري هيغنز.

- بالتأكيد، هل لديك فكرة عن مكانها الآن؟

ردّت بعد صمت قائلة: حسناً، في الواقع إن لديّ فكرة. هل أستطيع أن أوجّه إليك سؤالاً؟ ألا ترى أن بصمات الأصابع من الأدلة المفيدة؟

فقال المفتش سلاك بمرارة: فهمت الآن! ولكن تلك الفتاة كانت كثيرة الحذر، وقد كانت تؤدّي عملها وهي ترتدي قفازين من المطاط على ما أعتقد، وفي الحالات التي لا تلبس فيها القفازين كانت حريصة على أن تمحو بصمات أصابعها. وفي غرفة النوم والحوض لم نستطِع أن نعثر على بصمة إصبع واحدة في المنزل.

فأجابته وهي تديم النظر إلى وجهه قائلة: وإذا كانت لديكم بصمات أصابعها فهل كان ذلك يفيد في شيء؟

- ربما يا سيدتي، ربما كان باستطاعة الإدارة المركزية

أن تتعرّف على شخصيتها. أستطيع أن أؤكّد لك أن هذه ليست السرقة الأولى للخادمة المختفية.

فهزّت الآنسة ماربل رأسها وقد أشرق وجهها، ثم فتحت حقيبتها وأخرجت منها صندوقاً صغيراً من الورق المقوّى وبداخله قطعة من القطن ملفوفة بعناية حول مرآة صغيرة، ثم قالت وهي تؤدّي تلك الحركات ببطء مثير: من داخل حقيبتي هذه أستطيع أن أقدّم لكم بصمات أصابع الخادمة، وأعتقد أن البصمات واضحة جداً لأنها قبل أن تترك بصماتها على المرآة كانت تمسك بمادة لزجة.

فحملق المفتش سلاك إلى المرآة بدهشة ثم سألها قائلاً: هل حصلت على بصمات أصابعها متعمّدة؟

- بكل تأكيد.

- إذن كنت تشتبهين فيها.

- أجل، في الواقع كانت بداخلي شكوك تراودني؛ فقد كانت ممتازة إلى درجة توحي بالشكّ، ولا أخفي عليك أنني أخبرت الآنسة لافينيا بذلك تلميحاً ولكنها لم تأخذ تحذيري مأخذ الجِد. أخشى أن لا تؤمن بوجهة نظري في عدم وجود الخادمة المثالية يا سيدي المفتش. إنه لا يخلو واحد منّا من الخطأ، وأداء العمل سرعان ما يكشف عن هذه الطبيعة فينا.

فقال المفتش سلاك بعد أن استعاد توازنه: حسناً، أنا مدين لك بالشكر. سنرسل هذه البصمات إلى اسكتلنديارد وننتظر النتيجة.

وصمت سلاك، فمالت الآنسة ماربل بوجهها وهي ترمقه بنظرة ذات معنى قائلة: لا أظن يا سيدي، أنت ستفكّر في البحث بالقرب من مسرح الجريمة.

- ما الذي تعنينه يا سيدتي؟!

- ربما كان الشرح صعباً، ولكن حين تصادف أمراً غريباً فستلاحظ وجه الغرابة، بالرغم من أن معظم الأشياء الغريبة قد يبدو تافهاً. حينما فُقد العقد شعرت بأن غلادس فتاة أمينة وكنت واثقة من أنها لم تسرق العقد، ولكن لماذا ظنّت الآنسة سكينر أن الفتاة هي التي سرقته؟ وليست الآنسة لافينيا غبية (أو هذا ما أتصوّره على الأقل)، ثم تساءلت في نفسي وقلت: لماذا تريد التخلّص من خادمة تؤدّي عملها بطريقة مقبولة في الوقت الذي يصعُب فيه العثور على خادمة أخرى؟ وكان الأمر يبعث على الدهشة كما ترى. وتوجد ملاحظة أخرى غريبة لفتت نظري، وهي أن الآنسة إميلي مريضة بالوهم، ولكنها أول مريض بالوهم يصادفني لا يسارع إلى استدعاء الطبيب مع أن المرضى بالوهم يحبّون الأطباء! ولكن الآنسة إميلي كانت على العكس من ذلك.

فسألها المفتش سلاك باهتمام قائلاً: ما الذي تقترحينه يا آنسة ماربل؟

- حسناً، الذي يدور في رأسي أن الآنسة لافينيا والآنسة إميلي من الشخصيات الشاذّة، الآنسة إميلي تقضي معظم الوقت في غرفة مظلمة، وإذا لم يكُن شعرها الرمادي المجعد شعراً مستعاراً فسأكون عجوزاً مخرّفة! والذي أريد أن أقوله هو أنه من

المحتمل جداً أن السيدة النحيفة ذات الوجه الشاحب والشعر الرمادي يمكن أن تتحوّل إلى سيدة ممتلئة ذات خدّين أحمرين وشعر أسود، ولا أظن أن أحداً رأى الآنسة إميلي وماري هيغنز مجتمعتَين في وقت واحد. لقد كان لديها الوقت الكافي كي تعرف أنواع المفاتيح اللازمة لكل مسكن حولها وتعرف كل شيء عن جيرانها. وما أسهل أن تعثر على حُجّة لكي تتخلّص بها من الخادمة القروية! ثم تخرج الآنسة إميلي ذات مساء وهي ممتلئة حيوية ونشاطاً خارجة من الريف، ثم تعود في اليوم التالي بالقطار في شخصية ماري هيغنز، وفي اللحظة المناسبة تختفي ماري هيغنز ومعها الصيد الثمين.

وصمتت بُرهة ثم استطردت قائلة: سأخبرك عن الموضع الذي تستطيع أن تعثر عليها فيه، على منضدة السيدة إميلي. وخُذ بصمات أصابعها إن لم تصدقني، ولكنني واثقة من أنك ستجدني على حق. اثنتان من المحتالات على درجة عالية من الذكاء، هاتان هما الآنستان لافينيا وإميلي سكينر. ومما لا شك فيه أن لهما شركاء، ولكن الأمر المؤكّد أنهم لن يفلتوا من القصاص هذه المرّة، ولن أسمح أن تُشوّه سمعة فتاة من القرية بهذا الشكل أبداً، فغلادس هولمز طاهرة نقيّة مثل ضوء النهار، وهذا ما سأُقنع به الجميع. طاب مساؤك يا حضرة المفتّش.

كانت الآنسة ماربل قد غادرت الغرفة قبل أن يفيق المفتّش من دهشته، ثم تمتم المفتّش سلاك في نفسه قائلاً: يا إلهي، هل يمكن أن تكون على حق؟!

وسرعان ما اكتشف سلاك أن استنتاجات الآنسة ماربل كلّها صحيحة وتلقى تهنئة الضابط ميلشيت لكفاءته، ثم دعت الآنسة

ماربل غلادس لتشرب الشاي مع أدنا وقالت لها باهتمام بأنها ستبحث لها عن عمل جديد بمجرّد أن تسنح الفرصة.

❊ ❊ ❊

جريمة الفندق

لست أظن يا أعزّائي، ريموند وجوان، أنني سردت عليكما تلك القضية الغريبة التي حدثت منذ بضع سنوات. وليس في نيّتي أن أبدو في نظريكما مغرورة متفاخرة بقدرتي العقليّة بأي حال من الأحوال، ولكن لا يسعني إلا أن أشعر بالاغتباط لأنني استطعت أن أتوصّل إلى إماطة اللثام عن لغز غامض حيّر عقولاً أذكى من عقلي، وذلك باستخدام ما وهبني الله من قدرة على الاستنتاج والتفكير المنطقي.

سأحكي لكما هذه القصّة، وإذا شعرتما بغرور في كلامي فتذكّرا أنني ساعدت إنساناً مثلنا كان في كرب شديد.

كان أول شيء سمعت به عن تلك القضية في إحدى الأمسيات في نحو الساعة التاسعة عندما أقبلت خادمتي غوين وأخبرتني أن السيد باتريك وسيداً آخَر قد أتيا لزيارتي وأنها أدخلتهما إلى غرفة الجلوس. فطلبت من غوين إعداد بعض العصائر وأسرعت إلى تلك الغرفة، ولا أدري هل تتذكّرون السيد باتريك أم لا؟ لقد توفّي منذ سنتين ولكنه كان صديقاً لي طوال سنوات عديدة، كما كان يشرف على شؤوني القضائية باعتباره من المحامين الأكفاء. ومهما يكُن فقد رحّبت بالزائرَين، ثم تولّى السيد باتريك تقديم صديقه لي باسم رودز، وكان في أواسط العمر لأنه لم يكُن قد جاوز الأربعين إلا قليلاً، ولكنني لمست من حالته أنه يكابد عذاباً شديداً.

وبعد أن تعارفنا بدأ السيد باتريك في بيان الغرض من تلك الزيارة قائلاً: أرجو أن تغفري لصديق قديم لك هذا التطفّل يا آنسة ماربل. لقد جئت إليك لطلب المشورة.

والواقع أنني لم أفهم ما كان يرمي إليه، ولكنه استطرد قائلاً: لو كان السيد رودز مريضاً لعرضته على أحد الأطباء، ولكن...

وهنا قاطعه رودز بضحكة مروّعة قائلاً: أنا أتوقّع أن أموت بكسر في رقبتي خلال أشهر معدودة!

ثم أعقب ذلك تسلسل القصة كلها. منذ فترة قريبة وقعت جريمة قتل في بادشستر، وهي بلدة تبعد عنا بنحو عشرين ميلاً، ومع أنني لم أهتمّ كثيراً بتلك الجريمة لانشغالي وقتها ببعض الأحداث المحليّة في قريتنا كما هو الحال في الريف دائماً، إلا أنني أتذكّر أنني قرأت وقتها عن امرأة قُتلت بطعنة خنجر في فندق، وقد غاب عني اسمها بعد ذلك، أما في تلك اللحظة فقد علمت أن تلك المرأة هي زوجة السيد رودز، والأسوأ من هذا أن الشبهات تحوم حوله باعتباره هو القاتل.

هذا ما شرحه لي السيد باتريك بوضوح، ثم أضاف قائلاً: إذا كان المحقّق قد أصدر حكماً أولياً باعتبار الجريمة من فعل مجهول أو مجهولين بمشورة المحلّفين إلا أن السيد رودز يعتقد أنه سوف يُقبض عليه في خلال يوم أو يومين.

ولذلك جاء إلى السيد باتريك ووضع نفسه تحت تصرّفه، ثم قال السيد باتريك إنهما ذهبا عصر ذلك اليوم لاستشارة المحامي الجنائيّ الكبير السير مالكولم أولد، وإن المحامي قد وافق على

الدفاع عنه في حال تقديمه للمحاكمة.

وقد بيّن السيد باتريك أن السير مالكولم محام مقتدر وقد أعدّ دفاعه على أساس وجهة نظر معيّنة، ولكن باتريك غير مرتاح لوجهة نظره، ثم أضاف قائلاً: إن وجهة النظر تلك قد تكون لها وجاهتها ومبرّراتها ولكنها تتجاهل نقطة جوهرية، وهي مجريات الأحداث الفعلية.

ثم انتقل السيد باتريك إلى الكلام عن تقديره لأصالة رأيي وثقته بصدق حُكمي ونفاذ بصيرتي وإحاطتي بطباع النفس البشرية، ثم استأذنني في شرح تفصيلات القصة قبل أن أتمكّن من حلّ غوامضها وفكّ معمّياتها.

وكان واضحاً من مظهر السيد رودز أنه يشكّ في أن أكون ذات فائدة له وأنه يشعر بالامتعاض من المجيء به إلى هنا، ولكن السيد باتريك لم يعبأ به وبدأ يزوّدني بحقيقة ما حدث مساء الثامن من شهر أكتوبر، حيث كان السيد رودز وزوجته قد نزلا بفندق كراون في بادشستر، وكانت السيدة رودز المصابة بوسواس المرض قد ذهبت إلى فراشها بعد طعام العشاء مباشرة، وكانت تشغل هي وزوجها غرفتين متجاورتين يصل بينهما باب، وكان السيد رودز الذي يؤلّف كتاباً عن أحجار الصوّان المستعمَلة في عصور ما قبل التاريخ عاكفاً على عمله بالغرفة المجاورة.

وفي الساعة الحادية عشرة جمع أوراقه استعداداً للنوم، وقبل أن يفعل هذا بدا له أن يلقي نظرة على زوجته في غرفتها كي يطمئنّ إلى أنها لا تحتاج شيئاً، فإذا به يكتشف أن نور الغرفة مُضاء وزوجته ممدّدة في الفراش مصابة بطعنة في القلب،

والظاهر أنها فارقت الحياة منذ ما يقرب من ساعة.

ثم ذكر البيانات الآتية، وهي أنه كان يوجد باب آخَر في غرفة الزوجة يؤدّي إلى الممرّ، وكان ذلك الباب مغلَقاً بالمفتاح والمزلاج من الداخل، كما كانت النافذة الوحيدة في الغرفة مغلَقة بالمزلاج أيضاً، وطبقاً لأقوال الزوج فإنه لم يمرّ أحدٌ من الغرفة التي كان جالساً فيها سوى خادمة جاءت بزجاجات ماء ساخن. وكان السلاح الذي وُجد في الجرح هو خنجر صغير كان موضوعاً فوق مائدة الزينة الخاصة بالزوجة، وكان من عاداتها استخدامه كفتّاحة للورق. ولم يُعثر على بصمات أصابع على الخنجر، وقد أسفر الموقف عن شيء واحد وهو أنه لم يدخل إلى غرفة الضحية غير الزوج والخادمة.

وعندما سألت محدّثي عن الخادمة راح السيد باتريك يقول: لقد كانت تلك الخادمة هي أول من دارت التحرّيات عنه، واسمها ماري هيل من أهل البلدة، وهي تعمل وصيفة بالفندق منذ عشر سنوات، ولا يبدو أنه يوجد أي سبب يحملها على الاعتداء المفاجئ على حياة أحد من نزلاء الفندق، ثم إنها معروفة بالغباء الشديد والبلاهة على أي حال، ولم تتغيّر القصّة التي حكتها قط. لقد قالت إنها أحضرت للسيدة رودز قنينة الماء الساخن وإن السيدة كانت تشعر بنعاس وعلى وشك أن يغلبها النوم. وبصراحة يا آنسة ماربل فأنا لا أتصوّر أن أي أحد من المحلّفين في المحكمة يمكن أن يعتقد أنها هي التي ارتكبت جريمة القتل!

وصمت بُرهة ثم أخذ السيد باتريك يسرد بعض تفصيلات إضافية قائلاً بأنه عند أول الدرَج في فندق كروان توجد صالة

استقبال صغيرة يجلس فيها النزلاء أحياناً لشرب القهوة، ويوجد ممرّ يمتدّ إلى اليمين، والباب الأخير فيه هو الباب المؤدّي إلى الغرفة التي يشغلها الزوج، وبعد ذلك ينعطف الممرّ إلى اليمين مرّة أخرى، وأول باب فيه هو الباب الموصل إلى غرفة الزوجة، وقد تصادف أن هذين البابين كانا محلّ الرؤية من شهود عيان لأن الباب الأول الموصّل إلى غرفة الزوج (والذي سأسمّيه «أ») كان تحت نظر أربعة أشخاص منهم اثنان من المندوبين التجاريّين المتنقّلين وزوجان متقدّمان في السن كانا يشربان القهوة. وطبقاً لأقوالهم فإنه لم يدخل من الباب «أ» أو يخرج منه غير السيد رودز والخادمة، أما الباب الثاني في الممرّ «ب» فقد كان العامل الكهربائي يقوم بالعمل عنده وقد أقسم على أنه لم يدخل من الباب «ب» أو يخرج منه غير الخادمة، وهكذا أصبحت قضيّة غريبة للغاية. وإذا أخذنا بظواهر الأمور كان السيد رودز هو الذي قتل زوجته، ولكنني رأيت أن السيد باتريك كان مقتنعاً كل الاقتناع ببراءة موكّله، والسيد باتريك رجل موفور الذكاء.

وكان السيد رودز، الزوج، قد ذكر في التحقيق الرسميّ قصّة غير متماسكة عن امرأة كتبت عدّة خطابات تهديد لزوجته، وقد بدت لي قصّته تلك غير مقنعة في الواقع، وعندما ألحّ عليه السيد باتريك لكي يذكرها أمامي أجاب قائلاً: بصراحة أنا لم أصدّق قصّة كهذه قطّ، وأغلب ظنّي أن إيمي زوجتي قد اختلقت هذه القصّة.

وقد فهمت من أقوال الزوج أن السيدة رودز من النوع الذي يهوى تهويل الأشياء التي تحدث لها وتجسيمها، فإذا تصادف أن وطأت قشرة موز وزلّت قدمها كانت تلك مسألة نجاة من الموت

بمعجزة، وإذا احترق غطاء مصباح للقراءة كان معنى ذلك نجاتها من الموت حرقاً في بناء يحترق، لذا اعتاد الزوج أن يهوّن من أقوالها ولا يحملها على محمل الجدّ والخطورة.

وعلى الرغم من أنها كانت تقرأ له خطابات مكتوبة بلهجة جنونية إلا أنه كان يشكّ في أنها هي التي اختلقت تلك الخطابات، والواقع أنها فعلت شيئاً كهذا مرّة أو مرّتين من قبل؛ فقد كانت امرأة ذات طباع هستيرية شغوفة بكل ما يبعث على الإثارة. ومع أنه لا يوجد إنسان من هذا القبيل فعلاً إلا أنني فهمت أن الشرطة قد اعتقدت بأن السيد رودز قد اختلق تلك القصة غير المقنعة لإبعاد الشبهات عن نفسه.

ثم سألت الزائرَين عمّا إذا كانت قد نزلت امرأة وحدها في الفندق، فكان الردّ هو وجود امرأتين من هذا القبيل؛ إحداهما تُدعى السيدة غرانبي، وهي أرملة هندية إنكليزية، والثانية تُدعى الآنسة كاروثر، وهي عانس تأكل حرف الجيم في كلامها.

ثم أضاف السيد باتريك أن أدقّ التحرّيات التي قاموا بها بشأن المرأتين لم تثبت أن أحداً قد شاهد إحداهما قرب مسرح الجريمة، كما لم توجد أدنى صلة تربطهما بها على أي وجه من الوجوه. عندئذ قلت: يا للأسف، هذا يجعل القضية أكثر تعقيداً!

فنظر السيد باتريك إليّ متسائلاً، ولكنني لم أكُن أريد أن أقول أكثر من هذا، ولهذا استفهمت منهما عن رأي السير مالكولم في القضية فقالا إن المحامي الكبير يميل إلى الأخذ بنظرية الانتحار، ومع أن التقرير الطبيّ ينقض هذا الاتجاه وأنه لا

توجد بصمات أصابع على الخنجر إلا أن السير مالكولم واثق من قدرته على تنفيذ التقرير الطبيّ وإيجاد سبيل للتغلّب على مسألة بصمات الأصابع.

وعندما سألت الزوج عن رأيه من هذه الناحية قال إنه لا يعتقد بحال أن زوجته قتلت نفسها، ثم أضاف ببساطة قائلاً: لم تكُن زوجتي من ذلك النوع الذي يُقدِم على الانتحار.

والواقع أنني صدّقته لأن الناس المصابين بالهستيريا لا يعمدون إلى الانتحار عادة. ثم أخذت أفكّر بُرهة، ولم ألبث أن استفهمت عمّا إذا كان باب غرفة الزوج يؤدّي إلى الممرّ مباشرة، فردّ الزوج بالنفي قائلاً بأنه توجد ردهة صغيرة فيها حمّام ودورة مياه وأن الباب الموصّل من غرفة النوم إلى الردهة هو الذي كان مغلَقاً بالمفتاح والمزلاج من الداخل، فقلت لهما: في هذه الحالة يبدو الموقف كله لي في غاية البساطة.

وأقول إن هذا هو الواقع فعلاً، ومع ذلك يبدو أن أحداً لم يستطِع أن يفهم الموقف كما فهمته. والواقع أنني رأيت السيد باتريك والسيد رودز يحملقان إلى وجهي بشدّة إلى حدّ أنني شعرت بالارتباك، ثم قال السيد رودز: لعل الآنسة ماربل لم تقدّر صعوبات الموقف كما يجب.

فقلت: بل قدّرتها تماماً. السيدة رودز إما أن تكون قد قُتلت بيد زوجها أو بيد الخادمة، وإما أن تكون انتحرت أو قُتلت بيد شخص أقبل من الخارج ولم يشاهده أحد وهو يدخل أو يخرج.

وعندئذ قاطعني الزوج قائلاً: هذا مستحيل؛ فما كان

يمكن لأي شخص أن يدخل أو يخرج عن طريق غرفتي دون أن أبصره، وحتى إذا تمكّن شخص ما من الدخول إلى غرفة زوجتي دون أن يراه عامل الكهرباء فكيف كان بإمكانه الخروج مرّة ثانية تاركاً الباب مغلَقاً بالمفتاح والمزلاج من الداخل؟!

أما السيد باتريك فقد نظر إليّ وقال بلهجة من يشجّع سامعه على الكلام: ثم ماذا يا آنسة ماربل؟

فقلت: أودّ أن أوجّه سؤالاً. قل لي يا سيد رودز: ما هي أوصاف خادمة الفندق؟

فقال إنه غير متأكّد وفي ظنه أنها أقرب إلى الطول، وهو لا يذكر إذا كانت شقراء أو سوداء الشعر، فاستدرت إلى السيد باتريك وسألته نفس السؤال، فقال إنها متوسّطة الطول شعرها أقرب إلى الشقرة وعيناها زرقاوان.

فقال السيد رودز: أنت أقوى ملاحظة منّي!

فخالفته في هذا الرأي، ثم سألت السيد رودز أن يصف الخادمة التي في بيتي، وكانت النتيجة أنه عجز هو والسيد باتريك عن ذلك، وفي النهاية قلت لهما: ألا تدركان معنى هذا؟ لقد أتيتما إلى هنا وكل منكما مملوء بمشاغله، وكان الشخص الذي أدخلكما هو مجرّد خادمة، ونفس هذا الوصف ينطبق على السيد رودز وهو في الفندق. لقد رأى مجرّد خادمة، رأى زيّها الرسمي فقط وكان كل تفكيره مركّزاً على عمله، ولكن السيد باتريك رأى نفس المرأة بعين أخرى لأنه نظر إليها باعتبارها شخص، وهذا هو الأساس الذي اعتمدت عليه المرأة التي ارتكبت جريمة القتل.

لكن الرجلين لم يفهما، فكان لا بدّ من أن أزيدهما بياناً، فرحت أقول لهما: أظن أن الجريمة حدثت بالكيفية الآتية. لقد أقبلت الخادمة عن طريق الباب «أ» فاجتازت غرفة السيد رودز إلى داخل غرفة السيدة رودز ومعها قنينة الماء الساخن، ثم خرجت عن طريق الردهة الصغيرة إلى الممرّ، وكانت القاتلة المجهولة قد أقبلت عن طريق الباب «ب» إلى الردهة الصغيرة، ثم اختبأت في إحدى الغرف وانتظرت إلى أن ابتعدت الخادمة، وعندئذ دخلت إلى غرفة السيدة رودز وأخذت الخنجر الموضوع على منضدة الزينة، ولا ريب في أنها كانت قد استكشفت الغرفة من قبل، ثم اقتربت من الفراش وطعنت المرأة النائمة ثم مسحت الآثار عن مقبض الخنجر وأغلقت الباب الذي دخلت منه من الداخل بالمفتاح والمزلاج، وأخيراً خرجت عن طريق الغرفة التي كان السيد رودز جالساً يكتب فيها.

فلم يتمالك السيد رودز أن هتف قائلاً: ولكن كان لا بدّ من أن أراها أنا أو عامل الكهرباء في أثناء دخولها!

فقلت له: لا، أنت مخطئ في هذا؛ فما كان يمكن أن تبصرها وهي مرتدية زيّ الخادمة.

ثم تركته بُرهة يستوعب هذا المعنى، وبعد ذلك استطردت قائلة: لقد كنت منهمكاً في كتابتك ورأيت بزاوية عينك فقط خادمة تدخل وتتقدّم إلى غرفة زوجتك ثم تعود وتخرج مرّة أخرى، وكان الذي رأيته نفس الزيّ ولكنها لم تكُن نفس المرأة، وهذا هو ما رآه النزلاء الذين كانوا يشربون القهوة في الصالة؛ رأوا خادمة تدخل وخادمة تخرج، وكان هذا نفس الشيء بالنسبة لعامل الكهرباء. وأستطيع أن أقول إن الخادمة لو كانت جميلة

لتمعّن الإنسان في وجهها، فهكذا الطبيعة البشرية، ولكن إذا كانت مجرّد امرأة عادية في منتصف العمر فإن الذي تبصره منها هو زيّ الخادمة الرسميّ لا المرأة نفسها.

فهتف السيد رودز قائلاً: ومَن تكون تلك المرأة؟

فأجبته قائلة: حسناً، هذا شيء سوف يكون أكثر صعوبة، ولا بدّ أن تكون السيدة غرانبي أو الآنسة كاروثر. إن السيدة غرانبي تبدو في عمر يسمح لها بوضع شعر مستعار على رأسها عادة، وهكذا يمكنها أن تمثّل دور الخادمة بشعرها الطبيعيّ، ومن ناحية أخرى فإن الآنسة كاروثر ذات الشعر القصير المقصوص يمكنها أن تضع الشعر المستعار كي تقوم بهذا الدور. وأعتقد أنه سوف يسهل عليكم معرفة مَن منهما هي الفاعلة، وأنا شخصياً أميل إلى الاعتقاد بأنها الآنسة كاروثر.

وهذه هي نهاية القصة يا أعزائي؛ فقد تبيّن أن كاروثر هو اسم زائف ولكن صاحبته كانت هي القاتلة بلا أدنى شك، وكانت امرأة مختلّة العقل بالوراثة، وقد حدث أن السيدة رودز التي كانت متهوّرة في قيادة سيارتها دهمت ابنتها الصغيرة فأطار ذلك عقل المرأة المنكودة، ولكنها استطاعت إخفاء جنونها بدهاء شديد فيما عدا كتابة رسائل جنونية لضحيّتها المنتظَرة، وظلّت تتبع تحرّكاتها فترة من الوقت ورسمت خطّتها للانتقام بدقّة وذكاء، وفي اليوم التالي لارتكاب الجريمة أرسلت طرداً بالبريد فيه الشعر المستعار وزيّ الخادمة الرسميّ، وحين واجهتها الشرطة بهذه الحقيقة انهارت واعترفت في الحال، وهي الآن نزيلة في سجن دارتمور.

بعد ذلك أقبل السيد باتريك وقدّم إليّ رسالة رقيقة كتبها السيد رودز، فجعلتني أحمرّ خجلاً من فرط المدح والثناء على مواهبي المتواضعة، ولم يتركني صديقي القديم السيد باتريك إلا بعد أن وجّه إليّ هذا السؤال قائلاً: توجد نقطة واحدة، لماذا رجّحت أن القاتلة هي الآنسة كاروثر وليست السيدة غرانبي مع أنك لم تري أية واحدة منهما؟

فأجبته قائلة: لا بأس، كان ذلك بفضل حرف الجيم. لقد قلت لي في بياناتك إن الآنسة كاروثر تأكل حرف الجيم ولا تنطق به في كلامها، ففكّرت أن هذا يحدث كثيراً في الكتب مع الناس الذين يعملون بالصيد والقنص ولكنه لا يحدث في عالم الواقع، ثم هو لا يحدث قطعاً من شخص أقلّ من سنّ الستين، كما قلت لي إن المدعوة كاروثر في الأربعين من عمرها لذلك بدا لي أكل حرف الجيم في الكلام أقرب إلى حالة امرأة تمثّل دوراً وتبالغ في التمثيل.

* * *

دُمية الخيّاطة

كانت الدمية ترقد على المقعد المغطّى بالقطيفة، وكان ضوء الغرفة خافتاً في حين أن سماء لندن كانت قاتمة في الخارج، وكانت الستائر والسجاد كلها منسجمة مع ألوان الغرفة، حتى الدمية بثوبها القطيفة الأخضر الذي ترتديه والألوان التي صُبغ بها وجهها منسجمة مع ما حولها أيضاً. لم تكُن دمية عادية مثل التي يلعب بها الأطفال بل أشبه بدُمى مسرح العرائس، ومع أن الدمية كانت مستلقية على المقعد إلا أنها تكاد تنبض بالحياة.

دخلت سيبيل فوكس إلى الغرفة مسرعة حاملة بعض نماذج الخِياطة، ثم تلفّتت حولها فوقع بصرها على الدمية، فسرَت رعدة في بدنها وشملتها الحيرة، ثم أخذت تبحث عن نموذج ثوب من القطيفة الزرقاء. أين ذهب؟ لقد كان معها منذ لحظات!

ثم خرجت ونادت قائلة: إليزابيث، إليزابيث، هل النموذج الأرضي عندك في المشغل؟ قد تحضر السيدة فيلوز براون بين لحظة وأخرى.

ثم عادت إلى الداخل فأضاءت النور، ومرّة أخرى أبصرت الدمية. ووقعت عينها على النموذج الذي تبحث عنه، ثم سمعت صوت المصعد في الخارج وهو يتوقّف أمام الطابق، وبعد دقيقة أو دقيقتين كانت السيدة فيلوز تدخل مع كلبها الصغير وهي تقول: السماء ستُمطر بشدّة.

ثم خلعت قفّازيها والفراء. وجاءت إليسيا كومب، ولم تكُن إليسيا تأتي بنفسها لمقابلة الزبائن كلهم بل فقط حينما كانت تأتي الصفوة من النساء، والسيدة فيلوز من ذلك الطراز. كما جاءت إليزابيث رئيسة العمّال في مشغل الخياطة وهي تحمل الثوب الجديد، وجرّبته سيبيل على جسد السيدة فيلوز ثم قالت: هذا الثوب يناسبك جداً ولونه جميل كذلك.

فردّت السيدة فيلوز قائلة: أجل، لا شك في أنه مناسب جداً.

وأدارت السيدة فيلوز جسمها قليلاً لتتأمّل نفسها في المرآة ثم أجابتها بسرور قائلة: إن هذا الثوب يظهرني أكثر نحافة!

فردّت سيبيل قائلة: بل أنت أكثر نحافة عمّا كنت منذ ثلاثة أشهر.

- لا، ولكن طريقتك في الخياطة هي التي توحي بذلك.

فقالت إليسيا بافتخار: كنت أحب أن تشاهدي بعض زبائني.

ونظرت السيدة فيلوز فجأة نحو الدمية الراقدة على المقعد وسألتها بدهشة قائلة: آه! دميتك هذه تجعل بدني يقشعرّ خوفاً. متى أتيت بها؟

فنظرت سيبيل إلى إليسيا كومب التي بدأت الحيرة تظهر عليها ثم قالت: لا أذكر، منذ مدّة. لم أعُد أتذكّر الأحداث.

- هذا فظيع! سيبيل، منذ متى وهذه الدمية هنا؟

فقالت سيبيل باقتضاب: لا أعرف.

قالت السيدة فيلوز: حسناً، هذه الدمية تخيفني فشكلها غريب، وهي تبدو وكأنها تراقبنا جميعاً. ربما تسخر منا! لو كنت مكانك لتخلّصت منها.

ثم تجاهلت الموضوع وأخذت تناقش التعديلات التي يجب إدخالها على الثوب الجديد، ثم ارتدت ثوبها الأول واستعدّت للخروج، وبينما كانت تمرّ أمام الدمية قالت: لا، أنا لا أحب هذه الدمية!

وعندما خرجت قالت سيبيل: ما الذي تقصده بحديثها عن الدمية؟

وقبل أن تجيب إليسيا كومب كانت السيدة فيلوز قد عادت لتقول: نسيت فورلنغ. أين ذلك الكلب المشاكس؟

وحملقت السيدة فيلوز وكذلك المرأتان الأخريان. لقد كان الكلب الصغير قابعاً أمام المقعد المكسوّ بالقطيفة ينظر إلى الدمية، ولم تكُن تبدو على وجه الكلب علامات السرور أو الغضب بل كان ينظر إلى الدمية فحسب!

فنادت السيدة فيلوز الكلب ليتبعها، ولكنه أدار بصره نحوها بُرهة قصيرة ثم عاد ليركّز انتباهه إلى الدمية، فسألتها السيدة فيلوز قائلة: لا شك في أنها أوحت إليه بانطباع معيّن، ولا أعتقد أنه لاحظ وجودها قبل ذلك. هل كانت الدمية هنا عندما جئت في المرّة السابقة؟

فتبادلت السيدتان الأخريان النظرات ثم أجابتها إليسيا

بقولها: قلت لك إنني لم أعُد أتذكّر شيئاً، منذ متى جاءتنا هذه الدمية يا سيبيل؟

ثم سألتها السيدة فيلوز قائلة: من أين جاءتكم؟ هل اشتريتموها؟

فأجابتها إليسيا بشرود قائلة: لا، بل أظن أنها جاءتني هدية. إن نسيان الإنسان المستمرّ أمر يبعث على الجنون!

فصرخت السيدة فيلوز في وجه كلبها قائلة: لا تكُن غبياً يا فورلنغ، تعالَ وإلا حملتك بنفسي.

ثم أمسكت الكلب بين يديها فنبح الكلب الصغير محتجاً، ولكنها خرجت والكلب بين يديها لا يحوّل بصره عن الدمية.

قالت السيدة غروفز وهي ترمق الدمية: تلك الدمية تُدخِل الرجفة إلى بدني.

والسيدة غروفز هي عاملة النظافة، ثم قالت وهي ما تزال تنظر إلى الدمية بعدم ارتياح: أمر غريب، لم أُلاحظ وجودها قبل الأمس!

فسألتها سيبيل قائلة: ألا تحبينها؟

- أصارحك القول يا سيدة فوكس: هذه الدمية تجعل بدني يقشعرّ فهي غير طبيعية، تلك الساقان الطويلتان المتدليتان ونظراتها الماكرة، إنها مفزعة بلا شكّ.

فأجابتها سيبيل قائلة: ولكنك لم تعترضي على وجودها من قبل.

- لم ألاحظ وجودها، أنا أعرف أنها كانت موجودة منذ مدّة، بل...

وتوقّفت عن الحديث بُرهة ثم استطردت قائلة: هذه الدمية شيء كالذي نراه في أحلامنا.

ودخلت إليسيا كومب إلى الغرفة فسألتها سيبيل بعصبية قائلة: آنسة كومب، منذ متى وأنت تحتفظين بهذه المخلوقة؟

- أتقصدين الدمية؟ أنت تعرفين أن ذاكرتي لم تعُد تذكر شيئاً يا عزيزتي، أنا لا أذكر الآن ما حدث بالأمس. أعرف أن هذا يحدث لبعض الناس، ولكنه يحدث لي بسرعة فظيعة. آه، لقد نسيت أين وضعت حقيبتي وكذلك نظّارتي الطبيّة! أين تركت النظارة؟ كنت ألبسها منذ لحظات وأنا أقرأ شيئاً في الجريدة.

فردّت سيبيل وهي تناولها النظارة قائلة: لقد كانت فوق رفّ المدفأة. كيف جاءتك الدمية، ومَن الذي أعطاك إياها؟

فهزّت إليسيا رأسها قائلة: لا أذكر! لقد أهدانيها شخص أو أرسلها على ما أعتقد. على أية حال فهي منسجمة مع جوّ الغرفة، أليس كذلك؟

- إنها منسجمة معها كل الانسجام، لكن الغريب أنني لا أذكر متى لاحظت وجودها هنا!

فردّت إليسيا تؤنّبها قائلة: لا تفعلي مثلي، فأنت ما زلت شابة.

- ولكنني لا أذكر حقاً يا آنسة كومب، أعني أنني نظرت إليها بالأمس وفكّرت في أمرٍ ما. ربما كانت السيدة غروفز على

حق. هذه الدمية مخيفة، ويُخيل إليّ أن الدمية موجودة منذ زمن إلا أنني لم ألاحظ وجودها!

- ربما طارت وجاءتنا من النافذة! على أية حال هذا هو مكانها المناسب. هل يمكن أن تتصوّري شكل الغرفة دون هذه الدمية؟

فقالت سيبيل: لا، ولكن أتمنّى ذلك.

- ماذا تتمنين؟

- أتمنى عدم وجودها في الغرفة.

فسألتها إليسيا بضيق عن ذنب الدمية المسكينة، ثم وضعت النظارة على عينيها وقالت: نعم، أنا أفهم ما تقصدينه، هذه الدمية تسبّب بعض الرجفة، فنظرتها حزينة، ولكن في نظراتها إصرار كذلك!

فردّت سيبيل قائلة: غريب أن تشعر السيدة فيلوز بكراهية شديدة نحو الدمية!

- حسناً، بعض الناس يشعر بالكراهية دفعة واحدة نحو أشياء معيّنة.

فردّت سيبيل بشيء من القلق قائلة: ربما لم تكُن هذه الدمية موجودة حتى الأمس، ربما جاءت الآن فحسب. طارت فدخلت من النافذة واستقرّت في مكانها كما تقولين!

فقالت إليسيا: لا، أنا واثقة أنها هنا منذ بعض الوقت، وربما لم نفطن إلى وجودها إلا بالأمس.

- هذا هو رأيي أيضاً. لقد كانت موجودة منذ حين، ومع هذا فلا أذكر أنني رأيتها قبل الأمس.

فردّت إليسيا قائلة: دعينا من الدمية والتصوّرات الشاذة التي تتخيلينها.

ثم أمسكت إليسيا الدمية فهزّتها وعدلت من وضع أكتافها وأجلستها فوق كرسي آخَر، فارتجفت الدمية قليلاً ثم استقرّت في مكانها. قالت إليسيا: هذه الدمية هامدة، ومع هذا يبدو أنها تنبض بالحياة، أليس كذلك؟

* * *

عندما أعربت السيدة غروفز عن عدم ارتياحها للدخول إلى الغرفة سألتها الآنسة كومب عن السبب، فأجابتها قائلة: تلك الدمية.

- ماذا؟ الدمية مرّة أخرى؟!

- نعم، فهي تجلس أمام المكتب كأنها إنسان.

- عمّ تتحدّثين؟

ونهضت إليسيا فتوجّهت نحو غرفة القياسات حيث وُضع مكتب صغير في ركن الغرفة، ففوجئت بالدمية جالسة على المقعد أمام المكتب وذراعيها الطويلتين فوق المكتب، فقالت: يبدو أن أحدهم أراد أن يمزح. تصوّري، إن الدمية تشبه الإنسان وهي جالسة في هذا الوضع!

وفي تلك اللحظة جاءت سيبيل تحمل ثوباً ستقوم بتجربته في

ذلك الصباح، فقالت لها إليسيا: انظري يا سيبيل، هذه الدمية تجلس على مكتبي الخاص وكأنها تكتب بعض الخطابات.

فقالت سيبيل بدهشة: حقاً! أليس هذا غريباً؟!

- أنا في دهشة من أمرها. مَن الذي أجلسها هنا؟ هل أنت التي فعلت هذا؟

فأجابتها سيبيل بلهجة التأكيد: لا، لم أفعل، ربما إحدى الفتيات.

فقالت إليسيا بحدّة: هذه مزحة سخيفة.

ثم رفعت الدمية من المكتب وألقتها بجفاء فوق الأريكة. ووضعت سيبيل الرداء على مقعد وصعدت الدرَج إلى المشغل ثم خاطبت الفتيات قائلة: أنتن تعرفنَ الدمية التي في غرفة القياسات، أليس كذلك؟

فرفعت رئيسة العاملات والعاملات الثلاث رؤوسهنّ قائلات: بلى، نعرفها بالطبع.

فسألتهنّ سيبيل قائلة: مَن التي حاولت المزاح فأجلستها فوق المكتب؟

فأصرّ الجميع على أن لديهنّ ما يشغلهنّ عن مثل هذا المزاح، وقالت مارلين: قد تكون السيدة غروفز.

فهزّت سيبيل رأسها قائلة: لا يمكن أن تكون السيدة غروفز لأنها تخشى أن تقترب من الدمية.

فردّت إليزابيث رئيسة العمّال قائلة: سأنزل لأرى بنفسي.

وعادت سيبيل تقول بضيق: إذا لم تكُن إحداكنّ هي التي فعلت هذا فمن الذي مزح هذه المزحة؟

فقالت مارلين ضاحكة: ربما فعلت الدمية ذلك بنفسها!

فقالت سيبيل غاضبة: الأمر كله مجرّد عبث.

وهبطت سيبيل إلى غرفة القياسات، وكانت إليسيا مبتهجة وتتلفّت حولها ثم قالت: لقد فقدت نظارتي مرّة أخرى.

فردّت سيبيل قائلة: سأبحث لك عنها. لقد كانت معك منذ لحظات!

- لقد ذهبت إلى الغرفة الأخرى عندما صعدت أنت إلى المشغل، قد أكون نسيتها هناك.

ثم ذهبت إلى الغرفة الأخرى وهي تقول: أريد أن أراجع هذه الحسابات، ولكن كيف أفعل ذلك بغير نظارتي؟

- سأصعد لأبحث لك عن نظارتك الطبية الاحتياطية.

- لم تعُد لديّ نظارة احتياطية.

- وأين ذهبت؟!

- حسناً، أعتقد أنني نسيتها بالأمس في المطعم وأنا أتناول وجبة الغداء.

فقالت سيبيل: يا إلهي، معنى هذا أنك تحتاجين إلى ثلاث نظارات!

وعادت سيبيل إلى غرفة القياسات لتبحث عن النظارة، وأدارت بصرها في المكان، ثم توجّهت نحو الأريكة وأزاحت

الدمية عن مكانها ثم صرخت بفرح قائلة: لقد عثرت عليها.

فسألتها إليسيا بقولها: أين وجدتِها يا سيبيل؟

- تحت الدمية، أعتقد أنها سقطت منك عندما رميت الدمية على الأريكة.

- لا، لم أفعل ذلك بالتأكيد.

فقالت سيبيل: آه، إذن فقد أخذتها الدمية وأخفتها!

فقالت إليسيا وهي تنظر إلى الدمية باهتمام: هذه الدمية تظهر عليها ملامح الذكاء! ألا تشاركينني هذا الرأي يا سيبيل؟

فردّت سيبيل وهي تتحاشى النظر إلى الدمية قائلة: أنا لا أحب وجهها... يبدو كأنها تعرف شيئاً لا نعرفه نحن.

فسألتها إليسيا كومب بلهجة الرجاء قائلة: ألا ترين أن لها نظرات حزينة وجميلة؟

- أنا لا أرى فيها أي لون من الجمال.

- نعم، ربما أنت على حق. حسناً، لنعُد إلى عملنا، ستصل السيدة لي في غضون عشر دقائق ولا بدّ من أن أفرغ من كتابة القوائم.

وجاءت مارغريت فزِعة لتخبر السيدة سيبيل بأنها ذهبت لتضع الثوب في غرفة القِياسات بناء على تعليماتها ففوجئت بالدمية تجلس على المكتب مرّة أخرى.

فسقط المقص من يد سيبيل وقالت لمارغريت بغضب: انظري ما حدث بسببك. آه، أريد أن أعرف قصّة تلك الدمية.

- تلك الدمية تجلس أمام المكتب!

وذهبت سيبيل إلى غرفة القياسات. وكانت الدمية تجلس جلستها السابقة نفسها، فوجّهت حديثها إلى الدمية قائلة: هل أنت مصمّمة على ذلك؟

ثم رفعت الدمية بجفاء ووضعتها على الطاولة قائلة لها: هذا مكانك يا فتاتي، فابقي هنا.

وسارت عبر الغرفة متوجّهة إلى الغرفة الأخرى، ثم توقّفت عندما سمعت نداء سيبيل وقالت هذه بخوف: بعضهم يسخر منا، إن الدمية جالسة أمام المكتب مرّة أخرى!

- مَن تظنينه يعبث بتلك اللعبة؟

- لا بدّ من أنها واحدة من عاملات المشغل بالرغم من أنهن يُقسمن جميعاً على براءتهنّ من هذا المزاح.

فأجابتها إليسيا قائلة: على أية حال سأضع حداً لهذا الأمر.

وأغلقت غرفة القياسات بالمفتاح واحتفظت بالمفتاح في جيبها ثم قالت باسمة: آه، فهمت، إذن فأنت ترتابين فيّ وتعتقدين أنني شاردة اللب وبدلاً من أن أجلس إلى المكتب أضع الدمية لتكتب نيابة عنّي ثم أنسى ما حدث.

فأجابتها سيبيل قائلة: هذا مُحتمَل. على أية حال سأتأكّد من أن أحداً لن يكرّر هذا المزاح السخيف في أثناء الليل.

* * *

في الصباح كان أول شيء فكّرت فيه سيبيل هو أن تفتح باب غرفة القياسات لترى بنفسها. وكانت السيدة غروفز واقفة أمام الباب في انتظارها حاملة المكنسة الكهربائية لتنظف الغرفة، وقالت سيبيل: سنرى الآن.

ولكنها ارتدّت إلى الخلف مذعورة؛ فقد كانت الدمية جالسة على المقعد أمام المكتب، وصرخت السيدة غروفز: يا إلهي، تلك الدمية مسحورة! هذه هي الحقيقة يا سيدة فوكس. أرى وجهك شاحباً... سأدعو الآنسة كومب.

- لا داعي، أنا أحسن حالاً الآن.

ثم سارت نحو الدمية فرفعتها من مكانها بعناية وعبرت بها الغرفة، فسألتها غروفز قائلة: يبدو أن بعضهم يريد أن يكرّر المزاح.

فردّت سيبيل ببطء قائلة: لا أعتقد أن أحداً كان يستطيع ذلك في هذه المرة فقد أغلقت الباب بنفسي، وأنت تعرفين أن أحداً لا يستطيع أن يدخل إلى هذه الغرفة.

- ربما كان لدى أحدهم مفتاح آخَر للغرفة.

- لا أظن ذلك، فلم نكترث قبل ذلك بإغلاق هذه الغرفة، ثم إن مفتاحها من تلك المفاتيح القديمة المميزة وليس لدينا منه سوى مفتاح واحد.

- ألا يحتمل أن يكون مفتاح الغرفة المواجهة صالحاً لفتح هذه الغرفة؟

حاولتا تجربة مفاتيح المشغل كلها فتأكّد لهما أن المفاتيح

كلها لا تفتح باب غرفة القياسات.

وبينما كانت سيبيل وإليسيا كومب تتناولان وجبة الغداء معاً في وقت لاحق قالت سيبيل: لقد كان أمراً غريباً يا آنسة كومب!

وكان السرور يلوح على وجه إليسيا كومب عندما ردّت بابتهاج قائلة: يا عزيزتي، أعتقد أنه أمر خارق للطبيعة. سنكتب إلى رجال الأبحاث الطبيعية فربما أرسلوا إلينا أستاذاً أو وسيطاً روحياً ليرى إذا ما كان في تلك الغرفة شيء غير طبيعي.

فسألتها سيبيل بارتياب قائلة: يبدو أن الأمر لا يزعجك بأية حال؟

- حسناً، أنا أرى فيه بعض المتعة؛ أعني أن بعض الأمور تكون مسلية لمن هم في مثل عمري. ومع هذا فأنا أرى أن تلك الدمية تتجاوز حدودها، أليس كذلك؟

وأغلقت إليسيا كومب الغرفة في تلك الليلة أيضاً ثم قالت بارتياب: ما زلت أعتقد أن شخصاً ما سيحاول المزاح بطريقة أو بأخرى، ولا أدري سبباً لذلك.

- هل تعتقدين أنك سترينها جالسة أمام المكتب في الصباح؟

فأجابتها ببساطة قائلة: نعم، أعتقد ذلك.

ولكنها كانت مخطئة؛ فلم تكُن الدمية جالسة أمام المكتب لأنها كانت قد جلست على حافة النافذة تنظر إلى الشارع، ومرّة أخرى كان يبدو على الدمية أنها تجلس في وضع طبيعي!

قالت إليسيا كومب وهما تتناولان كوباً من الشاي في وقت لاحق: هذا أمر مروّع، أليس كذلك؟

ولم تكونا تشربان الشاي في غرفة القياسات كالعادة بل في غرفة إليسيا كومب التي تقع في مواجهتها، فقالت سيبيل: بل سخيف من وجهة نظري.

- أعني... أنك لا تستطيعين أن تعثري على دليل، فهي مجرّد دمية تنتقل من مكان إلى مكان.

❊ ❊ ❊

لم تعُد الدمية تتحرّك في أثناء الليل فحسب بل في أية لحظة من النهار، فبمجرّد مغادرتهما الغرفة وعودتهما بعد خمس دقائق تكتشفان أن الدمية تحرّكت من على الأريكة لتجلس أمام المكتب أو غيّرت المقعد أو جلست على المقعد لتنظر من النافذة...

وأخيراً قالت إليسيا كومب: هذه الدمية تتحرّك كما تشاء الآن يا سيبيل، وأعتقد أنها تجد متعة فيما تفعله.

وظلّت المرأتان تنظران إلى الدمية بأطرافها الطويلة وردائها المصنوع من القطيفة والحرير ووجهها المصبوغ، وكانت إليسيا هي البادئة بالكلام قائلة: بعض القطع القديمة من القطيفة والحرير وقليل من الأصباغ... هذا كل شيء! أعتقد أننا... أننا نستطيع أن نتخلّص منها.

فسألتها سيبيل قائلة وفي صوتها رنين الخوف: ما الذي تعنينه بالتخلّص منها؟

- حسناً، نستطيع أن نلقيها في النار، أن نحرقها... أعني

كما يحدث مع الساحرات.

وصمتت بُرهة ثم أضافت بتردّد قائلة: أو نلقيها مع المهملات.

- لا أعتقد أن هذا يفيد؛ فمن المحتمل أن يلتقطها أحد ويعيدها إلينا.

- نستطيع أن نرسلها إلى مكان آخَر، إلى بعض تلك الجمعيات التي تراسلنا كي نرسل لها شيئاً لتبيعه. أعتقد أن هذا أفضل حلّ.

فردّت سيبيل بإحجام قائلة: لا أدري. أنا خائفة من فعل شيء كهذا.

- خائفة!

- أعتقد أنها ستعود.

- أتقصدين أنها سترجع إلى هنا؟

- نعم.

- أتقصدين أنها كالحمام الزاجل؟!

- نعم، هذا ما أقصده.

فقالت إليسيا كومب: أخشى أن نكون قد بدأنا نفقد صوابنا. ربما أكون قد خرِفت وأنك تحاولين المزاح معي. هل هذا صحيح؟

- لا، لديّ إحساس مخيف! إحساس بأن هذه الدمية أقوى منا.

- ماذا؟ تلك الكتلة من الخِرق البالية؟!

- نعم، لأنها ذات إرادة صُلبة كما ترين.

- إرادة؟!

- أن تفعل ما تشاء، أعني أن الغرفة قد أصبحت غرفتها الآن. ولكن أليس من الحماقة أن تسيطر دمية على الموقف بهذا الشكل؟ أنت تعرفين أن السيدة غروفز تصرّ على عدم الاقتراب من هذه الغرفة.

- هل قالت بأنها تخاف من الدمية؟

- لا، ولكنها تتذرّع بشتّى الحجج كي تبتعد عنها.

فأضافت إليسيا إلى ذلك قائلة بارتياع: كيف سنتصرف يا سيبيل؟ لقد بدأت أعصابي تهتزّ ولم أعُد قادرة على عمل أية تصميمات جديدة منذ أسبوعين.

فقالت سيبيل: وأنا أيضاً، لم أعُد قادرة على التركيز. ربما كانت فكرتك عن الكتابة إلى جمعية للبحوث الطبيعية مناسبة.

فقالت إليسيا كومب بتردّد: أنا... لم أكُن جادة، قد ينظرون إلينا وكأننا من المجانين.

* * *

عندما ووصلت سيبيل في صباح اليوم التالي لاحظت أن باب الغرفة مغلق بالمفتاح، فسألت إليسيا عمّا إذا كانت قد أغلقته في الليلة الماضية فقالت إليسيا: نعم، أغلقته وسيظلّ مغلَقاً.

- ماذا تعنين؟

- سأستغني عن هذه الغرفة، تستطيع الدمية أن تنفرد بها. نحن لا نحتاج إلى غرفتين، تكفينا هذه الغرفة.

- ولكنها غرفتك الخاصة!

- لم أعُد بحاجة إليها.

- هل تعنين أنك لن تستخدمي غرفة القياسات مرّة أخرى؟

- نعم، هذا ما أعنيه.

- ولكن... ماذا بشأن التنظيف؟ ستصبح الغرفة متّسخة!

فقالت إليسيا كومب بإصرار: ليكُن، إذا كانت هذه الغرفة قد أصبحت تحت سيطرة الدمية فلنتركها تسيطر عليها كما تشاء ولنتركها تنظّف الغرفة بنفسها، فهي تكرهنا.

وتساءلت إليسيا بدهشة قائلة: ماذا تعنين بأن الدمية تكرهنا؟

- ألم تدركي بعد؟ ألم تشاهدي نظراتها وهي تنظر إليك؟

فردّت إليسيا وهي تفكّر قائلة: بلى، أعتقد أنني شعرت بذلك. تلك الدمية تكرهنا ولا تريد أن نبقى في الغرفة.

- إنها شيء صغير شرير، على أية حال لعلها تكون راضية الآن.

وسارت الأمور بهدوء بعد ذلك، وأخبرت إليسيا كومب

العاملات بأنها تخلّت عن غرفة القياسات في الوقت الحاضر، ثم سمعتهنّ يتهامسن بأنها بدأت تخرّف ولكنها لم تكترث.

* * *

بعد ثلاثة أسابيع قالت إليسيا كومب: يجب أن نفتح الغرفة بين الحين والآخَر.

فسألتها سيبيل بدهشة قائلة: لماذا؟

- أخشى أن تمتلئ بالحشرات، ولا أقلّ من أن ننظفها ثم نغلقها مرّة أخرى.

- أنا أفضّل أن نتركها على حالها ولا ندخل إليها أبداً.

- لقد أصبحت أكثر تشاؤماً منّي.

- كل ما في الأمر أنني أصبحت أرتجف كلما رأيت الدمية، وأفضّل أن لا أدخل إلى تلك الغرفة.

وأصرّت إليسيا على فتح الغرفة فقالت سيبيل بقلق: هل تريدين فتح الغرفة بدافع من الفضول فحسب؟

- حسناً، هو الفضول، فأنا أريد أن أرى ما فعلته الدمية.

وفتحت سيبيل الباب أمام إصرار إليسيا كومب، ففوجئتا بالغرفة نظيفة وكأنها لم تُترك منذ زمن! أما الدمية فقد كانت على الأريكة، ولم تكُن راقدة في الوضع الذي كانت فيه بل جالسة وخلف رأسها وسادة وكأنها ربة منزل تجلس في انتظار ضيوفها، فقالت إليسيا كومب: من الأفضل أن نترك الغرفة.

وبينما هما تتجهان نحو الباب ألقيتا نظرة أخيرة إلى الدمية فاستولى عليهما الاضطراب، وقالت إليسيا: لماذا تخيفنا إلى هذا الحدّ؟

- هل أنت واثقة من أنك لا تذكرين من أين جاءتك هذه الدمية؟

فأجابتها إليسيا قائلة: أنا لا أذكر على الإطلاق، وكلما أجهدت فكري ازداد يقيني بأنني لم آتي بها ولم تكُن هدية من مخلوق... أعتقد أنها جاءت من تلقاء نفسها!

- ألا تعتقدين أنها سترحل؟

- لا أرى أنه يوجد سبب كي تفعل ذلك؛ فهي تحصل على كل ما تريده!

* * *

لكن يبدو أن الدمية لم تكُن قانعة بذلك، ففي اليوم التالي بينما كانت سيبيل تدخل إلى غرفة العرض أطلقت صرخة عالية مستنجدة بإليسيا، وحين أقبلت إليسيا كومب عرفت سبب فزع سيبيل، وهو أن الدمية كانت في صالة العرض ترقد باسترخاء على الأريكة، وقالت سيبيل: لقد جاءت من غرفة القياسات وتريد هذه الغرفة أيضاً!

فقالت إليسيا كومب عابسة الوجه: ربما تريد أن تستولي على المشغل بأسره في النهاية.

ثم وجّهت حديثها إلى الدمية قائلة بحدّة: ماذا تريدين أيتها الشريرة؟ لسنا بحاجة إليك.

وخُيل إليها وكذلك إلى سيبيل أن الدمية تحرّكت من مكانها حركة خفيفة وغطّت وجهها بإحدى يديها لتنظر إليهما نظرة متوعّدة، فصرخت إليسيا قائلة: يا لها من مخلوقة بشعة! لم أعُد أطيقها، لا أستطيع أن أتحمل أكثر من هذا.

وفوجئت سيبيل بها تندفع نحو الدمية وترفعها من مكانها بجفاء وتحملها إلى النافذة وتطوّح بها، فأطلقت سيبيل صرخة مكتومة قائلة: إليسيا، لم يكُن لك الحق في أن تفعلي هذا، أنا واثقة أنك مخطئة فيما فعلت.

فردّت إليسيا كومب بانفعال قائلة: كان يتحتّم عليّ أن أفعل شيئاً، لم تعُد أعصابي قادرة على الاحتمال.

ثم اقتربت منها سيبيل ونظرتا من النافذة فشاهدتا الدمية ملقاة فوق الرصيف ورجلاها ممدودتان ووجهها نحو الأرض، فصرخت سيبيل قائلة: لقد قتلتِها.

- لا تكوني حمقاء، كيف أقتل شيئاً مصنوعاً من القماش؟! إنها ليست شيئاً حقيقياً.

وحبست إليسيا كومب أنفاسها وهي ترى طفلة صغيرة بائسة مهلهلة الثياب تنظر حولها، وعندما تأكّدت من أن أحداً لا يراها حملت الدمية برقّة، فنادتها إليسيا ثم التفتت نحو سيبيل قائلة: يجب أن لا تأخذ الطفلة الدمية فهي خطرة وشريرة... يجب منعها.

حاصرت السيارات الطفلة، فأسرعت سيبيل إلى الدرَج راكضة إلى الشارع وأسرعت إليسيا وراءها ولحقتا بالطفلة. قالت لها إليسيا: لا تأخذي هذه الدمية، أعيديها إليّ.

كانت الفتاة نحيلة في نحو الثامنة من عمرها، فقالت وفي عينيها نظرات التحدّي: ولماذا أُعيدها لك وقد شاهدتك ترمينها من النافذة؟

فقالت إليسيا بحنان: سأشتري لك واحدة أخرى. تعالي معي إلى محلّ اللعب واختاري أية دُمية تريدين، ولكن أعيدي إليّ هذه الدمية.

فقالت الطفلة بإصرار: لن أعيدها إليك.

وأحاطت الفتاة الدمية بذراعيها لتحميها، فقالت لها سيبيل: إنها ليست ملكاً لك ويجب أن تعيديها.

ومدّت سيبيل يدها لتأخذ الدمية منها، ولكن الطفلة ضربت الأرض بقدمها غاضبة وأخذت تصرخ قائلة: لن أعيدها، لن أعيدها. لقد أصبحت لي وأنا أحبها وأنتم لا تحبونها، أنتم تكرهونها وأنا أحبها. هل تعرفون ما تريده؟ إنها تريد الحب.

قالت ذلك وتسلّلت من بين السيارات، ثم عبرت إلى الجانب الآخَر من الطريق واندفعت نحو منعطف صغير واختفت في لمح البصر. وفكّرت السيدتان في شقّ طريقهما من بين السيارات، وقالت إليسيا: لقد اختفت!

- قالت إن الدمية تحتاج إلى من يحبها!

- ربما كان هذا ما تفتقر إليه طوال الوقت، الحب.

وفي وسط زحام المرور في لندن وقفت السيدتان المرتجفتان تنظر كل منهما إلى وجه الأخرى.

* * *

وجه في المرآة

ليس لديّ تفسير لهذه القصّة، ولا توجد عندي نظريات تشرح كيف ولماذا، ولكن هذا هو الذي حدث بالفعل.

ولكي أروي القصّة من البداية يجب أن أرجع إلى صيف عام ١٩١٤ قبل الحرب العالمية الأولى مباشرة، حين ذهبت مع نيل كارسليك إلى بادغويرزي. كان نيل من أعزّ أصدقائي وكنت أعرف شقيقه ألان، ولكنها معرفة سطحية، أما أختهما سيلفيا فلم يسبق لي أن التقيت بها من قبل، وكانت أصغر من ألان بعامين وأصغر من نيل بثلاث سنوات.

وكان من المفروض أن أذهب مع نيل إلى بادغويرزي في أيام الدراسة، وكان عمري عندما قابلت نيل وألان هو ثلاثة عشرون عاماً. كان هناك حفل كبير يُقام في المنزل، وكانت سيلفيا قد خُطبت منذ وقت قصير لشخص يُدعى تشارلز كرولي، وكان أكبر بكثير من سيلفيا كما يقول نيل ولكنه فتى عاقل ولطيف.

وصلنا في نحو السابعة مساء على ما أذكر، وذهب كل واحد إلى غرفته كي يرتدي ثيابه استعداداً للعشاء. وقادني نيل إلى غرفتي. وكان «بادغويرزي» بيتاً من البيوت الكبيرة العتيقة، وكانت قد أدخلت عليه إضافات كثيرة في القرون الثلاثة الأخيرة، وكان فيه عدد لا يُحصى من الدرجات الصاعدة والهابطة. كان نوعاً من البيوت التي يصعب عليك أن تحدّد موقعك في داخلها.

وأذكر أن نيل وعدني بأن يمرّ عليّ كي يرافقني إلى قاعة الطعام، وكنت أشعر بالخجل وأنا أفكّر في أنني سألتقي بهذا الجمع الكبير من الغرباء. وأذكر أنني قلت بأن ذلك المنزل من المنازل التي يتوقّع فيها الإنسان أن يلتقي بالأشباح في الممرّات، فقال نيل بغير اكتراث بأنه يسمع بعضهم يذكرون أن المنزل مسكون إلا أن واحداً لم يرَ شيئاً بعينه. وانصرف نيل مسرعاً، ولم تكُن الأحوال المالية للأسرة على ما يُرام ولهذا فلم يكُن يوجد خدم للعناية بالضيوف.

حسناً، كنت أرتدي ثيابي وحدي، وبدأت أربط ربطة العنق أمام المرآة، وكنت أرى وجهي وكتفَي ومن خلفهما حائط الغرفة الذي يتوسّطه باب. وفي اللحظة التي انتهيت فيها من عقد ربطة العنق رأيت الباب يُفتح، ولا أدري لماذا لم أستدِر! فقد كان مثل هذا التصرّف أمراً طبيعياً. على أية حال لم أستدِر بل اكتفيت بالنظر إلى المرآة لأرى الباب يُفتح ببطء، ورأيت غرفة فيما وراءه.

كانت غرفة للنوم وهي أكبر من غرفتي وفيها سريران. وفجأة حبست أنفاسي مرتاعاً؛ فقد رأيت فتاة ترقد على السرير وحول رقبتها يدان تضغطان بقوة... يدان لرجل، وكانت الفتاة تختنق ببطء! لم يكُن يوجد أي احتمال للخطأ؛ فقد كان المنظر الذي أراه واضحاً كل الوضوح، كان ما يحدث أمامي جريمة قتل! كنت أرى وجه الفتاة بوضوح، كنت أرى شعرها الذهبيّ الناعم ونظرات عينيها ووجهها الجميل يحمرّ ببطء، أما الرجل فلم أرَ منه سوى ظهره ويديه وندبة في الجانب الأيسر من وجهه تمتد حتى رقبته.

وتجمّدت في مكاني من هول المنظر لدقيقة أو دقيقتين، ثم اندفعت نحو الغرفة كي أنقذ الفتاة، وعندما استدرت كان الحائط الذي يظهر في المرآة من خلفي مجرّد خزانة ضخمة من الطراز الفكتوري ولا توجد فيه فتحة باب أو أية مظاهر للعنف، فمسحت عينَي.

ثم دخل نيل من الباب الآخَر يسألني عمّا أحاول أن أفعله، فسألته عمّا إذا كان وراء الخزانة باب، فأخبرني بأنه يوجد باب بالفعل يؤدّي إلى غرفة مجاورة، فسألته عمّن يشغل الغرفة فقال: الميجور أولدهام وزوجته.

وسألته عمّا إذا كانت السيدة أولدهام ذات شعر ذهبي ناعم، وحين أخبرني بأن شعرها أسود بدأت أدرك أنني كنت أتخيّل ما لا وجود له، ثم تمالكت أعصابي وأنا أهبط الدرَج معه، وبعد ذلك قال: هذه أختي سيلفيا.

نظرت بذهول إلى شقيقته التي يقدمها لي؛ فقد كانت الفتاة هي نفسها الحسناء التي رأيت صورتها في المرآة منذ لحظات وهي تكاد تموت اختناقاً. ثم عرّفني بخطيبها، وهو رجل أسمر طويل وفي الجانب الأيسر من وجهه نُدبة طويلة!

هكذا كان الأمر، وأترك لك أن تتخيّل وأن تقول ما شئت لو كنت في مكاني... كانت الفتاة والرجل الذي رأيته يخنقها هنا، ومن المفروض أن يتزوجها في غضون شهر! هل أمتلك القدرة على رؤية المستقبل؟ هل جاءت سيلفيا إلى هنا مع زوجها لتبقيا في لحظة من المستقبل كي أكون شاهداً على المنظر الذي سيقع في الحقيقة؟

وفكّرت في الموضوع طوال الأسبوع الذي قضيته في المنزل، وسألت نفسي: هل أروي ما حدث أم أصمت؟

ثم حدث تعقيد آخَر، وهو أنني أحببت سيلفيا حباً عميقاً منذ النظرة الأولى وشعرت بحاجتي إليها أكثر من أي شيء آخَر في العالَم، وقيّد هذا الإحساس الجديد يدي، ومع هذا فربما تزوجت سيلفيا من تشارلز كرولي وخنقها زوجها لو لم أتكلم، لهذا رويت لها القصّة كما رأيتها قبل رحيلي بيوم وأخبرتها بأنني أخشى أن تحسبني مجنوناً، ثم أقسمتُ لها على صدق ما أقول، كما أخبرتها بأنني رأيت أنه من واجبي أن أخبرها بذلك إذا كانت مصرّة على الزواج بتشارلز كي تفكّر في الأمر.

واستمعَت إليّ بهدوء، وكان في عينيها شيء لم أستطِع فهمه ولكنها لم تكُن غاضبة بأية حال، وحينما انتهيت من قصتي شكرتني، فبقيت أقول لها كالأحمق: لقد رأيت ما رويته لك، رأيته بكل وضوح.

فقالت بأنها تصدّقني. ثم غادرتُ المنزل وأنا لا أدري إذا ما كنت قد أحسنت التصرّف أم أنني ظهرت بمظهر الإنسان المهووس الذي يتخيّل الأشياء.

❊ ❊ ❊

بعد أسبوع سمعت أن سيلفيا فسخت خطبتها، ثم نشبت الحرب ولم يعُد لدي موضع للتفكير في شيء آخَر. وفي المرّات القليلة التي حصلت فيها على إجازة كنت أرى سيلفيا مصادفة ولكنني كنت أتجنّبها. وكنت ما أزال أحبها وأريدها من أعماق قلبي، ولكنني كنت أتخيّل أنها فسخت خطبتها بسبب القصّة التي

رويتها لها. ثم قُتل نيل في عام ١٩١٦، وكانت سيلفيا تحبّه حباً شديداً، وكان نيل من أعز أصدقائي، وطلبت منّي أن أحدّثها عن ساعاته الأخيرة. لقد كانت جميلة حتى في حزنها.

وتركتها وأنا أتمنّى أن تُنهي رصاصة حياتي؛ فليس للحياة طعم دونها، ولكن الرصاصة التي تمنّيتها لم تقتلني بل مرّت لتخدش الجانب الأيسر من وجهي، ثم قُتل تشارلز كرولي في إحدى المعارك في عام ١٩١٨ فأدّى ذلك إلى حدوث بعض التغيّر.

وعدت إلى الوطن في خريف عام ١٩١٨ قبل توقيع الهدنة فتوجّهت للقاء سيلفيا مباشرة ومصارحتها بحبّي إياها، ولم يكُن لدي أمل كبير، لكنني فوجئت بها تسألني عن السبب الذي أخّر سؤالي، فتلعثمت وأنا أخبرها بأن كرولي هو السبب، ثم سألتها عن السبب الذي دفعها إلى فسخ الخطبة فأخبرتني بأنها أحبتني منذ النظرة الأولى كما أحببتها. وتحدثنا مرّة أخرى عن الرؤيا التي شاهدتها، واتفقنا على أن الأمر غريب ولا شيء أكثر من ذلك.

وتزوجنا وشعرنا بالسعادة، ولكن سرعان ما أدركت أنني لست أفضل زوج يناسبها بعد أن صارت ملكاً لي. كنت أحبها بجنون، ولكنني كنت شديد الغيرة أغار من أي شخص لمجرّد أنها ابتسمت له، وكان ذلك يسرّها في البداية، أما بالنسبة إليّ فقد أدركت أنني أظهر بمظهر الإنسان الأحمق وأنني أُدمّر سعادتنا شيئاً فشيئاً. كنت أعرف ولكنني لا أستطيع أن أتغيّر، ففي كل مرّة كانت تعود متأخّرة أسألها، أين كنت؟ ومع مَن؟ وإذا رأيتها تضحك أو تتحدّث إلى رجل أظلّ أراقبها كالحارس.

كانت سيلفيا تضحك في بادئ الأمر ثم بدأت تضيق بغيرتي.

وبعد ذلك بدأت تبتعد عنّي، ليس بمشاعرها بل بأسرار عقلها، وكانت رقيقة ولكنها حزينة. وبدأت أدرك أنها لم تعُد تحبني شيئاً فشيئاً. لقد مات حبها، وكنت في انتظارها خائفاً منها.

ثم دخل ديريك وين رايت في حياتها، وكان يملك كل شيء أفتقده. لقد كان هادئ الأعصاب مرِحاً، وكان وسيماً أيضاً. لا بدّ أن أعترف بذلك، فبمجرّد أن رأيتَه قلت لنفسي: هذا هو الرجل المناسب لسيلفيا. وكانت سيلفيا تقاوم بشدة ولكنني لم أساعدها، وكنت أتألّم وكأنني في الجحيم.

وبدلاً من أن أساعد سيلفيا دفعت الأمور لتزداد سوءاً، ثم أعمتني الغيرة وما أشعر به من الشقاء فقلت لها كلمات جارحة قاسية، ثم شعرت بالسعادة وقتها وأنا أذكر كيف احمرّ وجهها. لقد دفعتها إلى حافة الصبر، وأذكر ما قالته من أنه لا يمكن أن تسير الأمور على هذا المنوال.

وحين عُدت إلى المنزل في مساء ذلك اليوم وجدته خالياً وقد تركت لي خطاباً ذكرت فيه أنها تركتني وذهبت إلى منزل «بادغويرزي» لتقضي يوماً أو يومين مع الشخص الذي تحبّه وتحتاج إليه. فطار صوابي وأسرعت إلى «بادغويرزي». وحين اقتحمت عليها الغرفة كان وجهها الجميل يعكس الرعب والخوف فقلت: لن ينالك أحد غيري، لن ينالك أحد أبداً!

ثم أطبقت بيدي على رقبتها ودفعتها إلى الخلف، وفجأة رأيت صورتنا في المرآة... سيلفيا تقاوم وأنا أخنقها والندبة على

الجانب الأيمن من وجهي!

لا، لم أقتلها؛ فقد وجدت أن يديّ تسترخيان وأنا أدفعها لتسقط على الأرض، ثم انفجرت باكياً وهي تهدّئني. نعم، هي التي تهدّئني! وأخبرتها بكل شيء، وأخبرتني بأن العبارة التي جاءت في خطابها عن الشخص الذي تحبه وتحتاج إليه تعني بها أخاها ألان.

لقد كانت فكرة غريبة أن يمضي الإنسان في الحياة وهو يذكر أنه لم يصبح قاتلاً بفضل رعاية الله ثم بفضل مرآة. وتقارب قلبانا في تلك الليلة، ولا أذكر أن أحدنا انحرف عن الآخَر منذ تلك اللحظة.

لقد مات شيء واحد في تلك الليلة، وهو شيطان الغيرة الذي تملّكني منذ بعض الوقت. ولكنني أسأل نفسي أحياناً: لنفرض أنني لم أرتكب تلك الغلطة (وهي أنني رأيت الندبة على الخدّ الأيسر في حين أنها في الجانب الأيمن لأن المرآة تُظهر الصورة معكوسة)، أو لو أنني كنت واثقاً من أن الرجل الذي رأيت صورته في المرآة هو تشارلز كرولي، فهل كنت سأحذّر سيلفيا؟ هل كانت ستتزوجني أم تتزوجه؟ وهل الماضي والحاضر شيء واحد؟

أنا إنسان بسيط ولا أدّعي أنني أفهم في مثل هذه الأمور، ولكنني رأيت ما رأيت. ونحن نعيش معاً بعد القسَم التقليدي على أن نظلّ معاً حتى يفرّق بيننا الموت، ومن يدري؟ ربما كنا معاً بعد الموت.

* * *

المحتويات

عقد الزمرّد ٥
المزاح الغريب ٣١
شريط القياس القاتل ٤٧
قضيّة الحارس ٦٩
قضية الوصيفة الكاملة ٨٩
جريمة الفندق ١١٣
دُمية الخيّاطة ١٢٧
وجه في المرآة ١٥١